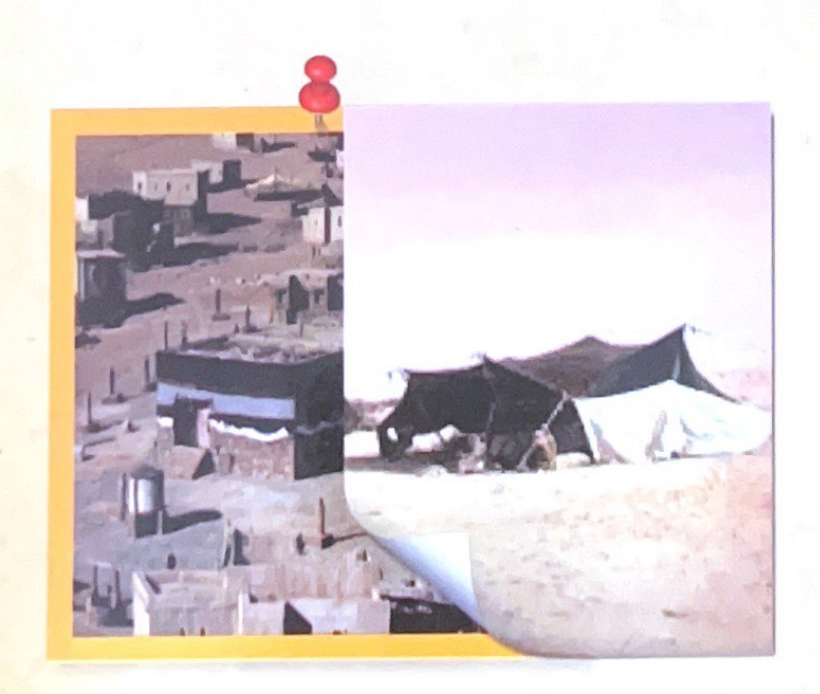
سلسلة غمراتٌ ثم ينجلين 1

نزعُ لِثام الأَعرابيّة

بحث في تحرير معنى الأَعراب في اللغة والأدب والشرع



تركي بن ماطر الغنّامي

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العتيبي ، تركي بن ماطر بن مطر
نزع لثام الأعرابية. / تركي بن ماطر بن مطر العتيبي - ط١. .-
عفيف ، ١٤٤٣هـ
٢٠٦ ص ؛ ..سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-١٥٨٨-٥

١- اللغة العربية - النحو أ.العنوان
ديوي ٤١٥,١ ١٤٤٣/١٠٤٧٤

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٠٤٧٤
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-١٥٨٨-٥



تركي بن ماطر الغنّامي

نزعُ لِثام الأَعرابيَّة

بحث في تحرير معنى الأَعراب في اللغة والأدب والشرع

المحتويات

وكـم غَـمـرةٍ مـاجَـت بـأمـواج غَـمـرةٍ

تَـجَـرَّعـتُـهـا بـالـصـبـرِ حـتـى تَـجَـلَّـتِ

الربيع بن ضبع الفزاري

مقدمة

الحمد لله حمد العارف بفضل خالقه، المنقاد في حبال طاعته، والصلاة والسلام على الأمين المبين ودليل البشرية إلى رب العالمين، محمد بن عبدالله رسول الهداية ونبي الرحمة المصدوق الصادق وأكرم الخلق على الخالق، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم سلامًا لا ينقطع صداه ولا ينتهي مداه.

إنني أكتب ما أكتب وذنبي إلى نفسي الذي لا أنوي منه توبة ولا أطلب له غفرانًا أنني أحب لغة العرب، وبيان العرب، وحقائق علوم العرب، بل أحب العرب، أحب حملة الإسلام الذين خرجوا من جزيرتهم تحت رايات أصحاب محمد فغيَّروا وجه التاريخ، فذابت فارس في أمواج فتوحاتهم وغارت، وانحسرت بيزنطة والروم أمام مدهم وتوارت، أحب أهل المروءات التي تنوء بحملها كواهل أبناء السلاطين وأرباب التجارة، أحب الذين لقنوا التاريخ كيف يكون الكرم والعطاء؟ وذلك بما ابتدعوه في أموالهم من حقوق تفننوا في بذلها، فخَرْبَقوا[1]

(١) خربق الشيء شقَّقَه وثقَّبَه حتى أصبح كهيئة الغربال، وهي من الفصيح المستعمل في عاميتنا المهجور في لغة الكتاب والمثقفين.

بها جدار الحرص وشح النفوس، فجعلوا للنازل ببيوتهم من أبناء الطريق حقًّا وسموه ضيافة، وجعلوا حقًّا لمن أصاب ماله جائحة من أبناء القبيلة وسموه رفدًا، أما الحلوبة التي تعطى للفقير حتى ينقطع لبنها سموها منيحة، وعطاء سموه هبة، وعطاء آخر سموه هدية، وثالثًا سموه نحلة، حتى أنه ليُخَيَّل للمرء أن المال عند العرب ما وجد إلا ليعطى، أحب الذين سطروا للأجيال كيف تبذل الأرواح دون المستجير، وكيف يكون الوفاء تاج الأخلاق، وكيف تكون العزة والأنفة شموخًا قمم الجبال سفوحه، أحب تلك القيم والخصال التي جاء الإسلام وهي في العرب فزادها شدة وقوة كما تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «لقد جاء الإسلام وفي العرب بضع وستون خصلة كلها زادها الإسلام شدة منها قرى الضيف، وحسن الجوار، والوفاء بالعهد»(١).

نعم. جاء الإسلام وفي قُرَى العرب وبواديها من الكرماء والنبلاء ما تكل الأقلام عن سرد أسمائهم فضلًا عن أخبارهم، فأهل مكة وهي من قرى العرب كانوا يسمون حذيفة بن المغيرة(٢) زاد الركب لفرط كرمه، وينوهون ويفاخرون بذكر عبدالله بن جدعان الذي بلغ الغاية في الكرم وإطعام الطعام، أما بوادي العرب فكانت تغص بألوان الكرم وأصناف الكرماء، فحاتم الطائي يضرب بكرمه المثل إلى

---

(١) **مكارم الأخلاق** لابن أبي الدنيا ص ٢٦.

(٢) هو والد أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها.

اليوم، وأبو الصعاليك عروة بن الورد لم يكن لكرمه حدود، حتى قيل: من زعم أن حاتمًا أكرم العرب فقد ظلم عروة، وربيعة بن مالك العامري كان يسمى ربيع المقترين وكان المسافرون يتحرون منازله في قيظ أو ربيع لينزلوا عليه ضيوفًا أو طلاب حاجة، حتى أن من كرماء العرب من كبرت سنه وخَرِف حين خَرِف على ما اعتاده في قوته، فكان يردد ليله ونهاره: اصبحوا الراكب، اغبقوا الراكب، عشوا الضيف.

وكان العربي يخشى المذمة ويأنف أن يتلبس بشيء مما يعاب به الرجال، فينفر أشد النفير من الرذائل، وينحاش من أن ينسب إلى البخل أو الغدر أو الخيانة أو الكذب، أو ما شابه ذلك من المعايب، فهذا أبو سفيان إبَّان شركه يجيب قيصر حين سأله عن رسول الله ﷺ بالصدق رغم عداوته للرسول الكريم لا لشيء إلا خشية أن يؤثر عنه الكذب! وأبو جهل ـ لعنه الله ـ رغم عزمه على قتل رسول الله ﷺ ليلة الهجرة يأبى أن يطيع من أشار عليه بكسر باب البيت أو تسوُّر الجدار خشية أن تتحدث العرب أن عمرو بن هشام روَّع بنات محمد.

وكل تلك الخصال التي زادها الإسلام شدة وقوة وكانت مفاخر العرب في جاهليتها وإسلامها جاء من الشعوبيين من أهل الأمصار بعد الفتوحات من اتخذ من بعض أحداثها ووقائعها وسائل يتنقص بها العرب، فتراه يُشَوِّه الأصل الجميل بحادثة عينٍ غير جميلة، فيعممها لينال من العرب

بها، ثم يجعل من هذا الثقب نافذة، ولا تلبث النافذة إلا قليلًا حتى تصبح على أيدي إخوانه بابًا تدخل منه وفود الحاقدين وجماهير الشعوبيين.

ومن مكر الشعوبية أنها كانت تصب جام غضبها وعصارة حقدها على من تسميهم «الأعراب» وتعني بذلك القبائل في جزيرة العرب، ثم المنتسبين إليها في حواضر الإسلام في العراق والشام ومصر، فتصمهم بكل نقيصة، وترميهم من المثالب بأقبحها، وهي إنما تتخذ اسم «الأعراب» سُلَّمًا لشتم وتحقير كل ما هو عربي، وكان خُلَّص العرب يضيقون بهذه التسمية؛ لأنهم يعرفون غايتها ومقصود الشعوبيين بها.

وشتم قبائل جزيرة العرب ولمزها بالأعرابية والبداوة أمر متوارث يتكرر على ألسنة الشعوبيين وفي كتاباتهم قديمًا وحديثًا، وقد فَنَّد العلماء الأوائل تلك الافتراءات وفضحوا أهلها حتى غدا ما يرددونه ممجوجًا في الأسماع لا يرفع به العاقل رأسًا ولا يلتفت إليه.

ومن ظن من سكان الجزيرة ومن خُلَّصِ العرب خارجها أن أهل الحظوظ العاثرة من أفراخ الشعوبية الأولى سيتوقفون عن هذا اللمز فهو واهم؛ لأن لكل قومٍ وارثًا، وهذه الأفراخ الناعقة ما هي إلا ورثة تلك الغربان.

والذي لا يفهمه هؤلاء ولم يفهمه أسلافهم أن البداوة في أذهان العرب العُرَباء فخر لا خزي، وأن العربي لا يراها إلا منظومة أخلاق وخصالًا حميدة زكاها الإسلام ورعاها ودعا إليها، والبداوة بهذا الوصف ما تزال

قائمة مرعية في مهد الإسلام وموطن العروبة يفخر بها السعوديون ويتخذونها شعارًا[١].

ولم تمنع هذه البداوةُ السعوديين الموصومين بها والمفاخرين بانتسابهم إليها من أن يأخذوا نصيبهم من ثمار الحضارة تامًّا غير منقوص، فهاهم قد فاتوا أكثر شعوب الأرض التي سبقتهم إلى المدنية ليس في توظيف ما أنتجه العلم الحديث فحسب بل حتى بالمشاركة في صلب العلوم والإضافة إليها.

فالعربي الحق منتسب إلى البداوة لا محالة، فلفظة «عرب» لم تكن تعني في التاريخ القديم إلا البدو والبداوة، وما يزال لهذا الاستعمال الموغل في القدم بقية تجري على ألسنة إخواننا الذين ربما لمزنا بعضهم ببداوتنا، فـ«العرب» في دارج استعمالهم لا تعني إلا البدو والقبيلة، وعليه فنحن عندهم العرب ونحن البدو، وهما نعتان لا ننكرهما ولا نتنصل منهما، وبأيهما دعينا أجبنا.

أما «الأعراب» فلا، فالأمر فيها آخر والشأن فيها مختلف، فقد اضطرب استعمالها حتى غاب أصل المعنى في فرعه، وركب آخرُه أوَّلَه، فحال مرُّ المشهود منه دون حلو المنشود، فعافتها النفوس ومقتتها العقول.

وقد تنبه بعض متقدمي العلماء للخلل في استعمالها وفي تفسيرها، فحاول ردها إلى أصلها كالقاضي أبي بكر

(١) من ذلك اتخاذ عبارة (حنًّا بدو) شعارًا لمهرجان الملك عبد العزيز للإبل في نسخته السادسة، وهو من أكبر وأضخم المهرجانات السنوية التي ترعاها الدولة.

ابن العربي، ولكن أنَّى له ذلك وهيهات؟ فالكتب قبله وبعده تصيح بملء أفواهها بمعنى باطنه ذمٌّ محض، وظاهره وصف مريب لا يستقيم مع مرادات العرب قبل الإسلام ولا استعمال الرسول والصحب الكرام بعده، فجاء هجينًا غير واضح، فهو زائد عن المعنى اللغوي قاصر عن المعنى الشرعي، ومع براءتنا من هذه اللفظة بمعناها الهجين ورفضنا لها إلا أننا سنسعى جاهدين في هذا الكتاب إلى تحرير معناها والوقوف على تحولاته في جاهلية العرب وإسلامها.

إنني أعلم أن الطريق وعرة والليلة غدراء[١]، ووعر المسالك لا تؤمن فيه المهالك، ولكن عزائي أنني استعرت من فصيح كلام العرب راحلةً نجيبة تُنَاقِل في حِرَار الحجاز كخَببيها في فيافي نجد، وأخذت من نور الرسالة وبيانها قبسًا تأخذ الشمس ضوءها من ضوئه، فإن بلغت غايةً قَصَرَ عنها آخرون فهذا فضل من الله ومِنَّة، وما كانت وسائلي إليها ـ مع ما ذكرت ـ إلا صدق الطلب وسلامة المقصد، وإن لم أبلغ أقصى الغاية فقد وضعت على أدناها علامة لا يشك من رآها من أرباب النهى أنه على حاقِّ الجادَّة وأنه سالك في سبيل الرشاد.

أما المتعثرون في تقليد المقلِّدين الذين يمدحون ما مدح فلان ويذمون ما ذمه، وهِجِّيْراهم إذا سمعوا له قولًا أو رأوا عنه نقلًا التمثل بالبيت الذي لا يحفظون من مأثور أقوال العرب غيره:

(١) الغدراء: الظلمة وهي من الفصيح الشائع في عامياتنا.

إذا قالت حذام فصدقوها
فإن القول ما قالت حذام

فهؤلاء لن تطيب لهم أنفس بما سيجدون؛ لأن الرأي الذي سيجدونه لا يتحقق فيه شرط التصديق عندهم وهو موت القائل من جهة، ومدح فلان لهذا القول من جهة أخرى، ولا أحسبني على هذا حذاميَّ القول عندهم ولا مصدَّقًا.

إن ما سيقع عليه بصرك ويعالجه فكرك في مقبل الصفحات سيخالف كثيرًا مما قرأتَ، وربما خُيِّل إليك أنه يخالف ثوابت لا يجوز المساس بها فضلًا عن هزِّ قواعدها وخلخلة أصولها، ولكنك ـ بإذن الله ـ لن تنتهي منها إلا وقد اطمأن قلبك إلى نتائجها وسكن فؤادك إلى ما آلت إليه.

فإن وفقنا للصواب فهذا المرجو الذي أعملنا الفكر وبذلنا الجهد واستنفدنا البحث من أجله، وإن تعثرنا في بعض الزلل فهو أمر قارٌّ في أصل خلقتنا وطبيعتنا البشرية لا مناص لنا منه، ولكننا مع ذلك نرجو عليه من الله أجر المجتهد وثوابه.

المؤلف
تركي بن ماطر الغنامي
عفيف في ١٦/١٠/١٤٤٣هـ الموافق ١٧/٥/٢٠٢٢م

الفصل الأول

«الأعراب» بين المعاجم اللغوية ولغة الفصحاء

مدخل وتساؤل

ما زلت منذ أولعت بالقراءة ومطالعة كتب أسلافنا ـ سواء الشرعي منها أو اللغوي والأدبي ـ أجد أحاديث وأخبارًا ونوادر لمن اصطلحت الكتب على تسميتهم بالأعراب، فأجد في هذه الأخبار الماتع اللافت وأجد النادر الطريف وأجد الرديء السيئ الذي تشمئز منه النفوس إلا أنني وجدت الوصف بالأعرابية في كتب الشريعة لا يكاد يرد إلا ذمًّا، فإطلاقات نصوص الكتاب والسنة تشير إلى أن الأعرابية صفة غير مستحبة، وعليه فقد رأينا الأعراب في كتب التفسير وشروح الحديث والفقه مذمومين إلا في حالات مستثناة، فهم جهلة جفاة ليسوا مظنة علم ولا معرفة، ولهم أحكام غير أحكام عامة المسلمين، فشهادتهم محل نظر، وإمامتهم في الصلاة محل نظر، ومكانهم في الصلاة الصفوف المتأخرة، وهم في مجمل حالهم أقرب للشر منهم إلى الخير.

بينما إذا نظرت في كتب اللغة والأدب رأيت أعرابها فصحاء حكماء أهل بلاغة وبيان، يسعى أوائل علماء اللغة والتفسير والشعر والأخبار للقائهم والتعلم منهم، ونجد كل أهل فن يخبرون عن علم غزير قد استفادوه من الأعراب، فهذا يذكر معنى لطيفًا اًستفادَهُ في آية، وذاك يطير فرحًا

بكلمة سمعها منهم فيها موضع احتجاج لتقرير مذهب من مذاهب السلف، وذاك ينوه بتفسير انكشف له من خلاله مراد شاعر. ووجدت العلماء إذا اختلفوا في شيء من اللغة احتكموا فيه إلى الأعراب(١)، ووجدت في أخبارهم حلمًا وعقلًا وعفة، ووجدت شعراء الأعراب مثالًا لصدق العاطفة وتدفقها، فضربت الأمثال بالصمة القشيري وابن الدمينة وعروة بن حزام ومجنون بني عامر وأمثالهم، ووجدت أخبار الأعراب في مجملها مطربة معجبة فيها من الصدق والنقاء والحكمة والكرم والشجاعة ما يستوقف العاقل ويرسم مسالك الهداية للجاهل.

وبين هاتين الصورتين: أعراب الكتب الشرعية، وأعراب كتب اللغة والأدب، وقفت حائرًا، أهؤلاء هم أولئك؟ أيعقل هذا؟ كيف يُبحَث عن تفسير لكتاب الله عند قوم لا يكاد يرد ذكرهم في القرآن إلا في معرض الذم؟ وكيف يكون فهم هؤلاء وقولهم حجة يحتج بها العالم على عالم آخر؟ وكيف يكون هؤلاء القوم الذين تذوب أخبارهم وأشعارهم رقة وصدق عاطفة جفاة أجلافًا؟ أسئلة كثيرة رأيتها تحاصرني من كل اتجاه، أتجاهلها في غالب أحوالي، ولكنها تلح علي في مواضع حتى لا أجد منها انفكاكًا، فألمح شيئًا قد لمع لي، ولا أكاد أراه إلا وجدتني أفقده، ولكن أثره يبقى في نفسي، ومع مرور الأيام واتساع القراءة اتسعت المسافة في ذهني بين «الأعرابين»، وصار

(١) ومن ذلك احتكام سيبويه والكسائي للأعراب في مجلس يحيى بن خالد.

الذي يلمع بالأمس يضيء اليوم ساعة أو بعض ساعة، وأصبحت الأسئلة تزيد وتتعمق، وبدأت أقف مع كل نصٍّ شرعي ورد فيه ذكر الأعراب وأراجع فيه كلام العلماء وأقوالهم، وأعيد النظر مرارًا لعلي أجد في تفسيراتهم ما يقطع عني دابر هذه الأسئلة التي أصبحت لا تفارقني، وكلما طمعت نفسي بانفراجة عند المفسرين والشراح وجدتهم يعيدونني إلى علماء اللغة، ثم ينطلقون من التفسير اللغوي، فالأعراب هم سكان البادية، وهم الموصوفون بتلك النقائص المشار إليها، فقلت في نفسي: لعل أعراب علماء الأدب واللغة آخرون، وأنه لا جامع بينهم وبين أعراب كتب الشريعة إلا الاسم فقط، ولكنني حال رجوعي إليهم لمعرفة أولئك الأعراب وجدتهم يقولون: أعرابنا هم سكان البادية، ووجدتهم يحيلونني إلى معاجم اللغة أيضًا، وإذا بـ«الأعرابين» هم أعراب المعاجم، وإذا بهذه الإحالات لا تحل إشكالًا ولا تميت تساؤلًا، بل إنها تؤكد هذا التضاد القائم منذ بدايات عصر التأليف، فالأعراب في كتب الشريعة جهلة مذمومون وفي كتب الأدب وعند أوائل علماء اللغة علماء ممدوحون.

حاولت أن أستنطق المعاجم وكتب اللغة وأرى ما فيها فإذا بها تقول أقوالًا كثيرة في الأعراب وتختلف اختلافًا لغويًّا كبيرًا ولكنها متفقة على أنهم سكان البادية.

قلت في نفسي: لقد قرأت أخبار العرب في جاهليتها واطلعت على كثير من أشعارها وأيامها وأحداث بواديها

وقراها فما وجدت أحدًا منهم وصف آخر بأنه أعرابي، فلم أجد كلامًا على لسان أحد من أهل الجاهلية قال فيه: رأيت أعرابيًّا أو جاءني أعرابيٌّ، أو يا أعرابي، بل رأيتهم يتنادون بأسمائهم أو يذكرون بقبائلهم، ولم أرَ أحدًا من أهل مكة وصف هذليًّا أو عامريًّا أو تميميًّا أو غيرهم من سكان البوادي أنه أعرابي، ومثلهم أهل يثرب وأهل الطائف، وجملة أهل القرى من العرب، ولم أجد بدويًّا قال عن نفسه أو عن غيره من البوادي إنه أعرابي، فلفظة «أعرابي» لم أجدها مستعملة في لغة أهل الجاهلية، وإنما وجدت بعض الكتب الإسلامية تطلق الوصف بالأعرابية على بعض الجاهليين أو تصف جاهليًّا بأنه أعرابي ولا تخصُّ بذلك البادية دون سكان القرى بل تطلق ذلك على أفراد منهم البدوي ومنهم القروي فالزركشي يستشهد بأبيات للطفيل الغنوي ويصفه بالأعرابية ويقول: «وقد قال الطفيل الغنوي مع أعرابيته في وقوع العلم باستفاضة الخبر ما دلت عليه الفطرة وقاد إليه الطبع، فقال...»[(١)].

والطفيل الغنوي شاعر بدوي شهير يسمى طفيل الخيل لكثرة وصفه الخيل وإجادته ذلك، ووجدت مسكويه يصف امرأ القيس بالأعرابية مع ما يشيع عند المعاصرين من وصف امرئ القيس بالملك والترف وما يتبعهما مما يشير إلى حضارة لا بداوة فيقول: «ولقد أعجبني قول امرئ القيس مع لوثة أعرابيته وعجمية ملكه وشبابه وذهابه في

---

(١) **البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي**، نشر دار الكتبي ٦: ١٠٤.

طرق الشعر التي كان متصنعًا به وهائمًا في واديه منغمسًا في معانيه. . . »[١].

وربما توسع بعض العلماء ـ علماء الأدب واللغة، وعلماء الشريعة على السواء ـ فأطلقوا الوصف بالأعرابية على مشاهير وأعلام من أهل القرى العربية مخالفين بذلك ما تقرر لديهم من تعريفات أهل اللغة في أن الأعراب سكان البادية، فنجد الجاحظ وهو أحد حذاق الأدب والبيان وأحد أبصر كتاب زمانه بأحوال العرب يقول عن أمية بن أبي الصلت وهو قروي شهير من أهل الطائف: «فإن قلت: إن أمية كان أعرابيًّا، وكان بدويًّا، وهذا من خرافات أعراب الجاهلية، وزعمت أن أمية لم يأخذ ذلك عن أهل الكتاب فإني سأنشدك لعدي بن زيد، وكان نصرانيًا ديانًا، وترجمانًا، وصاحب كتب، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر»[٢].

فأمية عند الجاحظ أعرابي برغم أنه من أهل الطائف وكان ممن نظر في الكتب وقرأ ولم يك يومًا بدويًّا، فالجاحظ يقبل أن يحتج عليه المجادل بهذه الحجة لقناعته بمضمونها، وهذا إقرار يتجاوز فيه الجاحظ ما ذهب إليه أهل اللغة في معنى «أعراب».

وإذا نظرنا عند علماء الشريعة وجدنا الماوردي وهو من أبرز علماء الشافعية يصف شاعرًا وكاتبًا ومترجمًا جاهليًّا

---

(١) **الهوامل والشوامل** لمسكويه، ت سيد كسروي، ط العلمية ٢٥٤.

(٢) **الحيوان** للجاحظ، ط العلمية ٥:٤٥٥.

من أهل الحيرة بالأعرابية فيقول: «وقد ذكر الإيادي مع أعرابيته أوصاف الولاة في شعره فقال. . . »[١].

ثم يورد أبياتًا من القصيدة الشهيرة للقيط بن يعمر الإيادي، والماوردي من العلم والتبحر في أصناف العلوم بحيث لا يظن به أنه لا يعلم عن معنى «الأعراب» في كتب اللغة أو في استعمال أهل زمانه من الكتاب، ومع ذلك يتجاوزه لينزل وصف الأعرابية على رجل أجمع الناس على أنه قروي متعلم يعيش في إحدى عواصم ممالك العرب.

وإذا استحضرنا أن كلمة «أعرابي» لم تنقل عن جاهلي قطعنا أن تنزيلها على أهل الجاهلية لا يصح وما ورد عند العلماء من استعمالها وصفًا للجاهليين فهو محمول على السهو أو التساهل، ومرد ذلك لما أسلفناه من أن وصف الأعرابي لم يكن مستعملًا في لغة الجاهليين، بل إن مصطلح «أعراب» الذي اشتق منه هذا الوصف فيما بعد لم يكن كبير الشيوع في الجاهلية، ومع ذلك فيحسن بنا أن ندون أهم ما استخلصناه من هذه النقول، وهو ما رأيناه صريحًا عند الجاحظ والماوردي من عدم تقيدهما بالمعنى الشائع عند اللغويين مما جعلهما يطلقان الوصف بالأعرابية على حضريين مجمع على قرويتهما.

كما لا نغفل أن إسقاط بعض العلماء المتأخرين هذا اللفظ على الجاهليين جاء مضطربًا يخالف ما تقرر عندهم

---

(١) **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك** للماوردي، ت محي هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية ٢٤٠.

من معنى «الأعراب» واختصاصه بسكان البادية، وما نقلناه ما هو إلا بعض براهين هذا الاضطراب، فتقرير المعنى من الناحية النظرية شيء واستعماله شيء آخر، وهذا يجعل المتبصر يقف من هذا المعنى اللغوي موقف المتشكك.

فإذا كان الجاحظ والماوردي قد استعملاها وصفًا لساكني القرى من أهل الجاهلية ولم يقيدا قلميهما بمعنى اللغويين ـ وهما من هما علمًا ومعرفة وسعة اطلاع ـ متجاوزين بذلك ما شاع في عصرهما من معناها وأصبح من بدهيات ما يسطر في الكتب، ألا يجعلنا ذلك نتساءل عن المعنى الدقيق للفظة «أعرابي»، ولماذا لم نجدها في استعمال الجاهليين؟ ولماذا هي مضطربة الاستعمال هكذا؟ فبينما يستعملها قوم من باب الوصف العام مشيرين بذلك إلى نمطٍ مخصوص من أنماط الحياة، نجدها في استعمال آخرين وصفًا بالنقص ليس الاجتماعي فحسب بل حتى الديني والأخلاقي.

ولأن الشيء بالشيء يذكر، والشبيه بالشبيه يستحضر فقد رأيت من ذهب هذا المذهب في إسقاط لفظ ووصف مستحدث لفئة مخصوصة وتنزيله على حالة سابقة له، ففي موطأ الإمام مالك رأيت إدخال شاعر جاهلي قديم في عموم وصف الأنصار، فقد جاء فيه: «أن رجلًا من الأنصار يقال له أحيحة بن الجلاح»[1].

---

(١) **الموطأ للإمام مالك**، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان الخيرية ٥: ١٢٧٤ وعلق على ذلك المحقق بقوله: «بهامش الأصل =

وقد أشار القاضي عياض إلى هذا الأمر وعده من التساهل والتجوز في اللفظ فقال: «والوجه صحته على تساهل في اللفظ وتجوز لما كان من القبيل الذين سموا بهذا الاسم في الإسلام فصار لهم كالنسب ذكر في جملتهم لأنه من إخوتهم»[(١)].

ولعل بعض أهل اللغة تأثر بهذا كقول البغدادي: «وقال ابن الشجري في أماليه مشيرًا إلى أن هذا البيت لأحيحة بن الجلاح بقوله: والبيت الذي أنشده سيبويه شاهدًا على جواز الرفع من مقطوعة لرجل من الأنصار»[(٢)].

وأحيحة بن الجلاح شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام.

ولفظة «أعرابي» التي لا وجود لها في كلام الجاهليين شاعت بعد الإسلام وبعد الفتوحات الإسلامية شيوعًا لا يماري فيه إلا مغلوب على عقله وإدراكه، وهي تملأ الكتب، وقد وصف بها من الخلق من لا يكاد يحصى لهم عدد، فالأعرابي الخطيب والأعرابي الشاعر والأعرابي الطفيلي، والأعرابي المتسول، والأعرابي الحكيم، والأعرابي الفطن والأعرابي السارق... إلى غير ذلك من

= قول مالك في أحيحة بن الجلاح أنه رجل من الأنصار إنما أراد أنه من القبيلة التي صارت بعد أنصارًا، فإن الأنصار اسم إسلامي سمى الله الأوس والخزرج، ولم يكونوا يدعون الأنصار قبل نصرهم النبي ﷺ وقبل نزول القرآن بذلك. وأحيحة جاهلي قديم، لم يدرك الإسلام ولا قاربه...».

(١) **مشارق الأنوار على صحاح الآثار** للقاضي عياض، نشر المكتبة العتيقة ودار التراث ٢: ٣١.

(٢) **خزانة الأدب** للبغدادي، ت عبد السلام هارون ٣:٣٥٣.

أصناف البشر التي تتمثل لك في الأعراب، وربما أوحت لنا بعض هذه الروايات والأخبار قبول الأعراب لهذا الوصف وعدم إنكارهم إياه.

وإذا كان استقراؤنا للنصوص صحيحًا ـ ولا نحسبه إلا كذلك ـ وأن لفظة «أعرابي» غير مستعملة في لغة الجاهليين، فما القول في لفظة «أعراب» التي جاءت في بضع قصائد يغلب على الظن أنها قيلت قبل الهجرة؟

لن نستطيع الإجابة عن هذا السؤال إلا بالرجوع إلى لغة العرب والاسترشاد بكلام علمائها والنظر في أقوالهم واستخلاص ما نراه صوابًا أو قريبًا من الصواب من مجمل ما قالوه.

معنى «الأعراب» في معاجم اللغة

إذا تكلمنا عن الكتب التي سنعالج من خلالها معنى هذا اللفظ فإن أول ما يتبادر إلى الأذهان كتب اللغة وعلى رأسها كتب المعاجم، وأولها معجم العين للخليل بن أحمد المتوفى سنة **١٧٠** للهجرة، وإذا نظرنا إليه وجدناه يفتتح مادة (عرب) بقوله: «عرب: العرب العاربة: الصريح منهم. والأعاريب: جماعة الأعراب. ورجل عربي. وما بها عريب، أي: ما بها عربي»[(١)].

ولم يزد الخليل على ذلك في شرح «عرب» ولم يشرح معنى «أعراب» مطلقًا، وإغفاله لشرحها والانتقال المباشر من شرح «عرب» إلى التأكيد على أن «الأعاريب» جماعة «الأعراب» يجعل الطريق مشرعًا لمن يفهم من كلامه أن «أعراب» عنده جمع «عرب» إذ كلامه يحتمل هذا احتمالًا راجحًا، فقوله بعد ذلك مباشرة: «ورجل عربي» يجعل حديثه متصلًا فقد تكلم عن لفظة «عرب» وجمعها «أعراب» وجمع جمعها «أعاريب» ثم مفردها «عربي» بينما تجاهل «أعرابي» التي هي مفرد «أعراب» مع تأكيده في ذات الوقت على جمع «أعراب».

---

(١) **العين** للخليل بن أحمد، ت مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ٢:١٢٨.

ولعل تجاهل الخليل للفظة «أعراب» المستقلة بمعنى خاص وإيراده لها في سياق شرح العرب والعربي فقط مما يحتمل أنها عنده جمع «عرب» هو ما جعل بعض تلاميذه يختلفون في لفظة «أعراب» هل هي جمع «عرب» أم لا؟[١] فشيخ النحاة سيبويه المتوفى سنة **١٨٠** للهجرة يقول: «وتقول في الأعراب: أعرابيٌ؛ أنه[٢] ليس له واحد على هذا المعنى. ألا ترى أنك تقول: العرب فلا تكون على هذا المعنى؟ فهذا يقويه»[٣].

فظاهر كلام سيبويه أنه لا يرى كلمة «أعراب» جمعًا لـ«عرب» لاختلاف المعنى القائم في ذهنه لكلتا اللفظتين وقد أشار إلى ذلك كثير من العلماء قال ابن سيده: «قال سيبويه: وتقول في الأعراب أعرابيٌ لأنه ليس له واحد على هذا المعنى، ألا ترى أنك تقول العرب فلا يكون على ذلك المعنى فهذا يقويه يعني أن العرب من كان من هذا القبيل من الحاضرة والبادية والأعراب إنما هم يسكنون البدو من قبائل العرب فلم يكن معنى الأعراب معنى العرب فيكون جمعًا للعرب فلذلك نسب إلى الجمع. قال الفارسي: لو قلت في النسب إلى أعرابٍ عربيٌ زدت الاسم عمومًا»[٤].

---

(١) سيرد معنا كلام النضر بن شميل أحد أكبر تلاميذ الخليل الذي يرى أن «أعراب» جمع «عرب».

(٢) **في شرح الكتاب** لأبي سعيد السيرافي ٤:١٢٩ «لأنه»، وهو ما سنراه كذلك عند ابن سيده في المخصص نقلًا عن سيبويه.

(٣) **الكتاب** لسيبويه، ت عبد السلام هارون ٣:٣٧٩.

(٤) **المخصص** لابن سيده، ت خليل إبراهيم جفال ٤:١٦٥.

وقال السيوطي: «وليس من شأن الجمع أن يكون أقل دلالة من مفرده ولذلك أبى سيبويه أن يجعل الأعراب جمع عرب لأن العرب يعم الحاضرين والبادين والأعراب خاص بالبادين»[١].

وهذه العلة المانعة التي خرجت على كلام سيبويه الذي نقلناه شائعة في كتب النحاة، وهي مبنية على ما استقر عليه معنى «أعرابي» لدى الناس وهو بدوي.

وعلى هذا فسيبويه يرى أن لفظة «عربي» تشمل حاضرة العرب وباديتها بينما «أعرابي» تختص بالبداة.

أما الفراء المتوفى سنة **٢٠٧** للهجرة وهو أحد كبار المدرسة الكوفية وتلميذ مباشر للكسائي الذي كان تلميذًا للخليل فهو يتحدث في سياق شرحه لكلمة «أعراب» واختلافها عن «عرب» فيما نقله عنه أبو بكر الأنباري بقوله: «قال الفراء: الأعراب: أهل البادية، والعرب: أهل الأمصار. فإذا نسب الرجل إلى أنه من أعراب البادية قيل: أعرابي. قال الفراء: ولا تقول: عربي، لئلا يلتبس بالنسبة إلى أهل الأمصار»[٢].

فالفراء يخطو بالأمر خطوة متقدمة عما قرره سيبويه فلا يقف عند ما وقف عنده ظاهر كلام سيبويه وهو أن

(١) **همع الهوامع في جمع الجوامع** للسيوطي تحقيق عبد الحميد هنداوي ١:١٧٢.

(٢) **الزاهر في معاني كلمات الناس** لأبي بكر الأنباري، ت حاتم صالح الضامن ٢:٥٦.

«الأعراب» لا تصح جمعًا لـ«عرب» فقط، ولكنه تجاوز ذلك إلى التفريق الكلي بين «عرب» و«أعراب» خوفًا من اللبس، فيجعل الأولى تختص بأهل الأمصار كما تختص الثانية بسكان البوادي.

ثم تلاه بعد ذلك الفارابي المتوفى سنة **٣٥٠** للهجرة فأكد على التفريق والتباين واختصاص كل لفظة بفئة فنراه يقول: «والعرب: أهل الأمصار، والأعراب: أهل البدو»[(١)].

وممن جاء بعد ذلك وزاد هذه الفكرة رسوخًا وأكثر الحديث حولها أبو منصور الأزهري المتوفى سنة **٣٧٠** للهجرة فمما قاله في ذلك بعد أن أورد كلام صاحب العين: «وقال غيره: رجل عربي إذا كان نسبه في العرب ثابتًا وإن لم يكن فصيحًا. وجمعه العرب؛ كما يقال: رجل مجوسي ويهودي، والجمع بحذف ياء النسبة: المجوس واليهود. ورجل معرب إذا كان فصيحًا وإن كان عجمي النسب. ورجل أعرابي بالألف إذا كان بدويًّا صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبع لمساقط الغيث، وسواء كان من العرب أو من مواليهم. ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب. والأعرابي إذا قيل له: يا عربي فرح بذاك وهش له. والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب له. فمن نزل البادية أو جاور البادين وظعن بظعنهم وانتوى

(١) **معجم ديوان الأدب** لإسحاق بن إبراهيم الفارابي، ت أحمد مختار عمر ١: ٢٠٤.

بانتوائهم فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي إلى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء.

وقول الله ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم﴾ [الحجرات: ١٤] هؤلاء قوم من بوادي العرب قدموا على النبي ﷺ المدينة طمعًا في الصدقات لا رغبة في الإسلام، فسماهم الله الأعراب، ومثلهم الذين ذكرهم الله في سورة البحوث: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] الآية.

قلت: والذي لا يفرق بين العرب والأعراب والعربي والأعرابي ربما تحامل على العرب بما يتأوله في هذه الآية، وهو لا يميز بين العرب والأعراب. ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار: أعراب، إنما هم عرب؛ لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن، سواء منهم الناشئ بالبدو ثم استوطن القرى والناشئ بمكة ثم هاجر إلى المدينة. فإن لحقت طائفةٌ منهم بأهل البدو بعد هجرتهم واقتنوا نعمًا ورعوا مساقط الغيث بعدما كانوا حاضرة أو مهاجرة قيل: قد تعربوا أي صاروا أعرابًا بعدما كانوا عربًا»[١].

والأزهري رحمه الله هنا يحلل ويستدل مؤكدًا على التفريق

(١) **تهذيب اللغة** ت محمد عوض مرعب مادة (عرب) ٢:٢١٨.

الكلي بين العربي والأعرابي وبين العرب والأعراب ويجعل اللفظتين متباينتين تباينًا تامًّا موافقًا المنقول عن الفراء غير مشير في كلامه إلى خصوص وعموم بين اللفظتين.

بل إنه يضيف كلامًا يصرح فيه أن الأعراب كانوا يستشعرون هذا الفارق لذلك كانوا يفرحون إذا وصفوا بأنهم عرب!

ثم نجد التأكيد على اختصاص لفظة العرب بأهل القرى عند أحد كبار المعجميين الذين لا يقلون عن الأزهري مكانة في تاريخ صناعة المعجم العربي وهو معاصره الذي ولد بعده بقرابة خمس وأربعين سنة ومات بعده بثلاث وعشرين وهو أبو نصر الجوهري المتوفى سنة **٣٩٣** للهجرة فنراه يقول: «العرب: جيل من الناس، والنسبة إليهم عربي بين العروبة، وهم أهل الأمصار. والأعراب منهم سكان البادية خاصة. وجاء في الشعر الفصيح، الأعاريب. والنسبة إلى الأعراب أعرابيٌ، لأنه لا واحد له. وليس الأعراب جمعًا لعرب كما كان الأنباط جمعًا لنبطٍ»[١].

والجوهري هنا ـ بعبارة مختصرة ـ يؤكد ما ذهب إليه سيبويه من أن «الأعراب» ليست جمعًا لـ«عرب»، ثم ما ذهب إليه الفراء والفارابي والأزهري في أن لفظة عرب خاصة بأهل القرى والمدن العربية، ويلمح إلى أن «أعاريب» مثل «أعراب» و«الأعرابي» واحدهما.

وهذا الرأي شاع في كتب المعاجم والتفاسير وشروح

---

(١) **الصحاح** للجوهري ت أحمد عبد الغفور عطار، مادة (عرب) ١:١٧٨.

الحديث عن الجوهري والأزهري لا سيما ما أفاض فيه الأخير، فقد فصَّل وأسهب ووظف بعض الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة «الأعراب»، فكثيرًا ما نجد كلامه بنصه عند المفسرين والشراح، أو مشارًا إليه، ولن يجد القارئ مشقة في إدراك مقصد الأزهري من التأكيد على التباين بين دلالة لفظتي «عربي» و«أعرابي»، فالدافع الجلي لهذا القول والغرض منه الذب عن الصحابة الأطهار رضوان الله عليهم حتى لا ينال من مقامهم سفيه أو جاهل بتأول الآية الكريمة ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ فيظن أن الصحابة داخلون في عموم هذه الآية، لذلك أكد على أن الأعراب (أهل البادية) ليسوا هم العرب (أهل القرى) التي تعني في سياق كلامه المهاجرين والأنصار، فالعرب ممدوحون والأعراب مذمومون فيجب عدم الخلط بينهما.

وعلى الرغم من الوجاهة ـ من الناحية النظرية ـ لرأي القائلين بالفصل التام والتباين بين اللفظتين واختصاص كل واحدة منهما بفئة إلا أنه رأي مرجوح بل مُطَّرَح غير معمول به، فكلمة «عرب» عند غالب الخاصة وعموم العامة تشمل البادي والحاضر على السواء، لأن التباين الكلي يتعارض مع واقع العرب وضرورات علومهم، وهو منقوض حتى بصريح تطبيقات القائلين به وكلامهم، وإنما ألجأهم لهذا القول ما يجدونه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مع ما استقر لديهم من الواقع المعيش من أن «الأعراب» تعني سكان البادية، فالرأي الذي غلب وعده العلماء رأيًا راجحًا هو القول المخرج على ما قرره سيبويه من أن «الأعراب» ليست

جمعًا لـ«عرب» لاختلاف معنييهما، فأصبح القول عند النحاة أن «العرب» اسم لهذا الجيل حاضرة وبادية و«الأعراب» سكان البادية خاصة.

وإذا أعدنا النظر وجدنا أن منطلق الجميع واحد وهو ما شاع وعرف من أن لفظ «الأعراب» لا معنى له إلا سكان البادية، وبالتالي فمعناه لا يشمل جميع العرب، ومن هنا تشعبت الآراء وتعددت.

فرأينا أن محور معنى «الأعراب» ومرتكزه عند اللغويين ـ بعد الخليل ـ سكنى البادية، ومع تعدد السياقات الشرعية واللغوية التي ترد فيها هذه اللفظة ظهرت بعض العقبات والمشكلات حول التعريف الدقيق لها، لذلك شرعت الأبواب للاجتهاد والاختلاف، فاشترط بعضهم شرطًا آخر في معنى «أعراب» يضاف إلى سكنى البادية وهو الانتساب إلى العرب، وتنازل آخرون عن شرط العروبة فلا مانع عندهم من أن يكون الأعرابي أعجميًّا مولى للعرب، ثم جاء بعد ذلك من تنازل عن قيد موالاة العرب، فصار الأعرابي ساكن البادية فقط من أي جنس كان وبأي لغة تكلم، فالعروبة بمعنى اللغة أو النسب لم تعد شرطًا في الأعرابية.

ثم ما زال المعنى يتقدم ويتأخر بين المعجميين والمفسرين والشراح، حتى صار أشبه بالعمليات الرياضية، فلفظة «الأعراب» لا تنفك في المعاجم وفي التفاسير والشروح عن ربطها بكلمة «عرب» فلا تكاد ترد إلا معها، ومع كل ورود لهما ينبه على أنه لا علاقة بينهما وأن الأولى

ليست جمعًا للثانية، ومع كثرة التعريفات ظهرت المشكلات مما جعل أهل الشروح يتوقفون لتجلية المعنى الذي زاد غموضًا فأصبحت تعريفاته مشكلة في ذاتها تحتاج إلى حل، قال العدوي: «والأعراب سكان البادية (قوله واحدها أعرابيٌ) قال صاحب المصباح الواحد أعرابيٌّ بالفتح، وهو الذي يكون صاحب نجعةٍ وارتيادٍ للكلأ وقال الكرماني والنسبة إلى الأعراب أعرابيٌّ؛ لأنه لا واحد له انتهى أي فيكون اسم جمعٍ وقوله لا واحد له أي لا مفرد له ينسب إليه فلا ينافي قول الشارح واحدها أعرابي أي الذي هو منسوبٌ إلى الأعراب فإذا علمت ذلك فيكون بين العرب والأعراب التباين وكذا نقل عن القاضي ويكون بين العجم والأعراب العموم والخصوص الوَجْهِي يجتمعان في أعرابيٍّ عجميٍّ وينفرد الأعرابي إذا كان يتكلم باللغة العربية وينفرد الأعجمي في ساكن الأمصار والذي في النهاية والقاموس وغيرهما أن الأعراب سكان البوادي بقيد كونهم من العرب فإذن الأعراب أخص من العرب فهو الراجح ووقع في حواشي شرح تصريف العزي لبعضهم ما نصه: العرب خلاف العجم سكنوا البوادي أو القرى والأعراب سكان البوادي تكلموا بالعربية أو لًا فبينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ وقيل غير ذلك»[١].

---

(١) **شرح الخرشي على مختصر خليل وبهامشه حاشية العدوي**، الأميرية ببولاق ١:٢٦.

وما أشار إليه بقوله «وقيل غير ذلك» يلفت النظر إلى أقوال أخرى قد تكون في معنى «الأعراب»، أو ربما في العلاقة بينها وبين لفظة «عرب»، أو غير ذلك، ولعل بعضها يتضح لنا مما سنذكره بإذن الله في موضعه.

إن الذي يطلع على ما كتب في المعاجم والتفاسير والشروح سيرى تعدد الاتجاهات في تفسير معنى «الأعراب» وسيجدها مبنية على منطلقات الشارح في أصل اشتقاق لفظة «عرب»، فقوم ينطلقون من أن العروبة نسب ولهم في الشرح أكثر من اتجاه، وقوم ينطلقون من أن العروبة لسان ونسب، ولهم كذلك أكثر من اتجاه، وقوم ينطلقون من أن العروبة لسان فقط.

وتعدد المنطلقات في «عرب» انسحب على «أعراب» مع إجماعهم بأن لفظة «أعراب» لا علاقة لها بلفظة «عرب».

إن ما قدمناه فيما سبق ليس إلا خلاصة كلام المنطلقين من رأي سيبويه في أن «أعراب» ليست جمعًا لـ«عرب»، وكيف نتج عن ذلك مساران أحدهما شاع عند النحاة واشتهر وهو أن العرب أمة وأن الأعراب سكان البادية من هذه الأمة، والرأي الثاني الذي شاع في المعاجم ومنها دلف إلى التفاسير والشروح، وهو التفريق بين العرب والأعراب ليكون العرب أهل القرى والأمصار، والأعراب سكان البادية، ثم ما جرى بعد ذلك عند القائلين بهذا القول من اختلاف.

وقبل أن ننهي هذا المبحث يجب أن نشير إلى أن القول

عند أهل اللغة في «أعراب» ليس ما قدمناه فقط، وإنما هذه أقوال المنطلقين من أن لفظة «أعراب» ليست جمع «عرب»، وأن هناك لغويين وشراحًا ذهبوا غير مذهب هؤلاء في «أعراب» فهم يرون أن كلمة «أعراب» جمعًا لـ«عرب»، ولم تكتب لهذا الرأي الشهرة لأنه لم ينقل في المعاجم الكبرى التي أصبحت مراجع الباحثين كلسان العرب وتاج العروس، وسوف نقف مع هذا الرأي في موضعه من هذا البحث بإذن الله.

اضطراب النحويين
في جموع «عرب» و«أعراب»

تقدم معنا أن أهم الأسباب التي جعلت الأنظار تتجه اتجاهًا واحدًا في معالجة معنى لفظة «أعراب» كانت قضية صرفية محضة فعندما صرح سيبويه أن «أعراب» لا يصح أن تكون جمعًا لـ«عرب» معللًا لذلك باختلاف معنييهما انصرفت حينئذٍ الأنظار وهمم الباحثين إلى البحث في الوجهة التي اختارها سيبويه لما كان له ولكتابه من ثقل وتأثير في دراسات اللسان العربي، ولم نجد عند النحاة بعد ذلك رأيًا يخالف هذا الرأي.

وإذا نظرنا إلى قول سيبويه وجدناه لا يمنع ذلك لعلة متعلقة بتصريفات اللفظة، بل إن في كلامه ما يلمح إلى أن ما تنصرف له العقول لأول وهلة الذهاب إلى أن مفرد «أعراب» «عرب»، ولكنه عند النسبة سيشتبه بعربي المنسوب إلى العرب فلا يعرف حينها الأعراب من العرب لذلك جرت النسبة إلى «أعراب» وهي من صيغ الجموع، فالعلة المانعة إذن هي دفع اللبس وهو أمر لا علاقة له بأصل المقاييس الصرفية.

وأهل النحو مجمعون على أن وزن «أفعال» من أوزان

الجموع، ثم اختلفوا في هل يأتي عليه الواحد أم لا؟ واختيار السواد الأعظم أنه لا يأتي عليه الواحد مطلقًا، بل هو عند الأكثرية وزن خاص بالجمع لا غير، وقال البعض إنه وزنُ الجمع غالبٌ فيه وجعلوا مثاله لفظة «أعراب»، وهذا مبحوث في كتب شروح النحو ومشهور؛ لذلك رأينا شراح النحو يفترضون أن لهذه اللفظة مفردًا لم يستعمل حتى لا تكون جمعًا لـ«عرب» لعلة المعنى التي أشار إليها سيبويه، يقول السيوطي: «ومثال الغالب أعراب فإنه جمع لمفرد لم ينطق به وجاء على وزن غالب في الجموع لأن أفعالا قل في المفردات جدًّا»[١].

بل إن أكثر النحاة يرون ـ كما أسلفنا ـ أنه وزن خاص بالجمع لا غير، ويردون قول المحتجين بـ«أعشار» في قول العرب: «برمةٌ أعشار» بجعلها من باب وصف المفرد بالجمع.

وإذا سألنا القائلين بمنع كون «أعراب» جمعًا لـ«عرب»، وقلنا لهم: ما جمع «عرب»؟ وما جمع «أعراب» إذن؟ وجدناهم يختلفون في ذلك اختلافًا كبيرًا كما اختلفوا في معنى «الأعراب» قبل ذلك مما يشير إلى القلق الذي لا ينفك عن هذه اللفظة في كل أحوالها.

عندما راجعنا الأقوال في ذلك وجدنا تداخلًا كبيرًا بين جموع اللفظتين في كتب اللغة فالكلمة ترد هنا جمعًا لـ«عرب» وترد هناك جمعًا لـ«أعراب»، والعكس بالعكس، وربما وجدنا عند عالم واحد قولين متضاربين.

---

(١) **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع** للسيوطي ٣: ٣٧٥.

هل «أعاريب» جمع «أعراب» أم جمع «عرب»؟

صاحب العين الذي قدمنا بكلامه في المبحث السابق لا يشير إلى جمع «عرب» كما بينا وإنما أشار إلى جمع «أعراب» معتبرًا «أعاريب» جمعًا لها، ومثله ابن دريد في الجمهرة فقد قال: «وقد جمع الأعراب أعاريب في الشعر الفصيح»[(١)].

وابن دريد ممن لم يشر في معجمه إلى تفريق بين العرب والأعراب.

وممن صرح بأن «أعاريب» جمع «أعراب» ابن سيده فقال: «والأعاريب جمع الأعراب»[(٢)]، وكذلك قال الفيروزآبادي: «والأعراب منهم: سكان البادية، لا واحد له، ويجمع: أعاريب»[(٣)].

رأينا فيما تقدم أن «أعاريب» جمع «أعراب» بيد أن بعض الشراح لديهم رأي آخر ففي شرح ديوان المتنبي المنسوب لأبي البقاء العكبري وهو من كبار النحويين يراها جمع «عرب» فيقول: «والأعاريب جمع عرب يقال عرب وأعرب وأعاريب وكله اسم جنس وليس الأعراب جمعًا لعرب كالأنباط جمعًا لنبط وإنما العرب والأعراب اسما جنس»[(٤)].

ونلحظ هنا تأكيده على أن «أعراب» ليست جمعًا

(١) **جمهرة اللغة** لابن دريد، ت رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين ٣٢٠.
(٢) **المحكم والمحيط الأعظم** لابن سيده، ت عبد الحميد هنداوي، العلمية ٢:١٢٦.
(٣) **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، ت محمد نعيم العرقسوسي ١١٣.
(٤) **شرح ديوان المتنبي** للعكبري، ت مصطفى السقا ورفاقه ١:١٥٩.

لـ«عرب» وذلك بعد سرده لجموع «عرب» التي يراها، لكن العجيب أن الشارح يصرح في موضع آخر من شرحه بأن «أعاريب» جمع «أعراب» أيضًا! فيقول: «وأصله أن يجمع على أرجال مثل صاحب وأصحاب ثم يجمع أرجال على أراجيل مثل أعراب وأعاريب»[١].

وهذا مما يؤكد الاضطراب المصاحب لهذه اللفظة من كل وجه حتى عند كبار العلماء.

هل «أعارب» جمع «أعراب» أم جمع «عرب»؟

ترد «أعارب» عند بعض العلماء جمعًا لـ«أعراب» وعند آخرين جمع «أعرب» التي هي جمع «عرب»[٢]، فممن عدها جمع «أعراب» أبو حيان الأندلسي فبعد أن ذكر أن لفظة «أعراب» من صيغ الجموع قال: «فالعربي من له نسب في العرب، والأعرابي البدوي منتجع الغيث والكلأ، كان من العرب أو من مواليهم. وللفرق نسب إليه على لفظه فقيل: الأعرابي، وجمع الأعراب على الأعارب جمع الجمع»[٣].

وعدها كذلك الصنعاني في بعض شروحه جمعًا لـ«أعراب» فقال: «ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعارب»[٤].

---

(١) نفسه ٣: ٣٧٥.

(٢) انظر **المصباح المنير** للفيومي، العلمية ٢: ٤٠٠.

(٣) **البحر المحيط في التفسير** لأبي حيان الأندلسي، ت صدقي محمد جميل ٥: ٤٨٧.

(٤) **سبل السلام شرح بلوغ المرام** لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، نشر دار الحديث ١: ٦٠١.

أما ابن هشام فعدها جمعًا لـ«أعرب» وبالتالي لـ«عرب» فهو يقول: «تقول كلب وأكلب كفلس وأفلس ثم تقول أكلب وأكالب ولا يجوز في أكالب أن يجمع بعد وكذا أعرب وأعارب فلا يجوز في أعارب أن يجمع»[١].

فهو يؤكد على أن «أعارب» جمع «أعرب»، وأنها لا تجمع بعد ذلك.

أما المطرزي فقد عدها جمعًا لـ«أعرب» ولكنه اعتبر «أعاريب» جمعًا لـ«أعارب» كذلك فهو يقول: «ويجمع الجمع فيقال: أكلبٌ، وأكالب، وأكاليب، وأعارب، وأعاريب»[٢].

لا أظن أن لبسًا سيقع للمتعلم أو العامي أكثر من هذا اللبس، فـ«أعاريب» جمع «أعراب» وجمع «عرب»، وجمع أيضًا لـ«أعارب»، و«أعارب» جمع جمع «عرب» وجمع كذلك لـ«أعراب»، فالجموع القياسية كلها يصح أن تكون جمعًا لـ«عرب» أما «أعراب» ـ وهو جمع قياسي ـ فلا والسبب الخوف من اللبس!

إن ما هرب منه العلماء في «عرب» و«أعراب» وأنكروا على ضوئه كون الأخيرة جمعًا للأولى خوف اللبس ها هو يقع في جمعهما وقوعًا ملبسًا ومحيِّرًا، فالأقوال مضطربة متعارضة متضاربة وتبعات تضاربها ستظهر عند قراءة النصوص فعلى أي معنى سيحمل القارئ أو السامع هاتين

---

(١) **شرح قطر الندى** لابن هشام، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ٥٢.

(٢) **المغرب في ترتيب المعرب** للمطرزي، دار الكتاب العربي ٥٢٤.

اللفظتين «أعاريب» و«أعارب» عندما يجدهما في شعر أو نثر مما قاله العرب الفصحاء أو من جاء بعدهم؟ وأنى له أن يعرف المنعوتين بها هل هم عرب (أهل أمصار) أم أعراب (سكان بادية)؟

إن قلق لفظة «أعراب» يظهر للدارس عند القراءة في أي فن من فنون علوم العرب فهو يجد هذا القلق في كتب التفسير وشروح الحديث والفقه، وفي كتب اللغة نحوها وأدبها، ويجده حتى في الدراسات التاريخية إلى غير ذلك من المواضع والدراسات التي ترد فيها، فكتب اللغة التي كانت مظنة العلاج وجدناها مصدر المشكلة إذ هي الأصل الذي يتكئ عليه أهل الفنون الأخرى ويحيلون إليه ويحتجون بما فيه.

وعودًا على ما ألمحنا إليه سابقًا من أن بعض أهل اللغة يرى أن «أعراب» جمعًا لـ«عرب» خلافًا للرأي الشهير المتداول الذي رأينا ما ترتب عليه عند أهل اللغة، وكيف كان أثره في البحوث والدراسات التي تعتمد ما جاء عند اللغويين؟ فهل سنجد عند أهل الرأي الآخر ما نستطيع النفاذ من خلاله إلى المعنى الدقيق للفظة «أعراب»؟

«أعراب» جمع «عرب»

تبين لنا مما سبق أن «أعراب» صيغة جمع صحيحة، بل إن هذه الصيغة عند أكثر الصرفيين لا تكون إلا للجمع، وظهر لنا أن منع المانعين لها من أن تكون جمعًا لـ«عرب» ما كان إلا بسبب المعنى وما استقر عندهم من أن «أعراب» لا تعني إلا البادية، فهل سنجد عند القائلين بأن «أعراب» جمعًا لـ«عرب» حلا للمشكلات التي تولدت عن القول الأول؟ وكيف سيتجاوزون معضلة معنى «أعراب» واختلافه عن معنى «عرب»؟

إن القول بأن «أعراب» جمع لـ«عرب» قول قديم قدم القول الأول وكلاهما منقول عن اثنين من أكبر تلاميذ الخليل، فكما نقل الأول عن سيبويه فالثاني منقول عن النضر بن شميل، قال العيني: «وذكر النضر وغيره أن الأعراب جمع عرب، مثل: غنم وأغنام، وإنما سموا أعرابًا لأنهم عرب تجمعت من ههنا وههنا»[1].

والنضر هنا يقرر ثم يؤكد صورة هذا الجمع بالمثال، ثم يشرح مأخذ العرب في هذا الجمع والحالة الداعية لاستعماله، وظاهرٌ في كلامه أنه يتكلم وهو خلو من ضغط

---

(١) **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** للعيني، دار إحياء التراث العربي ٥:٢٢٦.

المعنى الشائع للفظة «أعراب» في عصره، فهو يتكلم عن معنى لغوي واستعمال العرب الفصحاء له فقط، غير مستحضر الإشكالية التي تكلم عنها الأزهري وهي توهم دخول الصحابة من المهاجرين والأنصار في عموم لفظة «أعراب»، التي يمهد لها الطريق هذا الرأي فقد استغل أهل الضلالة هذا المعنى اللغوي لينزلوا الآية على عامة العرب، والصحابة يدخلون فيهم بلا شك.

وقد وجدنا هذا القول بعده عند إمام من أئمة غريب القرآن وهو الراغب الأصفهاني فقد جاء في مفرداته: «العرب: ولد إسماعيل، والأعراب جمعه في الأصل، وصار ذلك اسمًا لسكان البادية»[١].

والراغب هنا يؤكد على أصل المعنى اللغوي وأن «الأعراب» في الأصل جمع «عرب»، إلا أنه يشير إلى تغير قد طرأ فنقل اللفظة عن أصل استعمالها وصيرها اسمًا لفئة مخصوصة من العرب وهم سكان البادية، ولكنه لم يشر إلى أسباب هذا التطور أو متى كان، وهل هناك نقطة فاصلة في التاريخ عدلت مسار هذه اللفظة؟

وقول الراغب يجعل العاقل المتريث يقف معه ويمعن النظر فيه، فهو قول وسط، ارتفع عن الإطلاق الذي رأيناه فيما نقل إلينا من كلام النضر، حيث لم يتحرز فيه عن محاذير تنزيل الآيات القرآنية على عموم العرب، ولم يعتبر

(١) **المفردات في غريب القرآن** للراغب الأصفهاني، ت صفوان عدنان الداودي ٥٥٦.

الواقع الذي كان مشاهدًا من شيوع هذا اللفظ في الكتب نعتًا للبوادي، على أن الراغب أيضًا لم يصل إلى النفي المطلق وما يترتب عليه من تناقضات ظهرت لنا في عرضنا لبعض آراء القائلين بالقول الأول فيما قدمناه.

فإذا كان الحال كما رأينا فلا بد لنا من بحث أعمق نقرأ من خلاله النصوص التي وردت فيها هذا اللفظة ونجتهد في دراسة جميع السياقات وننظر إلى معناها في كل سياق متتبعين هذه اللفظة في العصور القديمة ثم العصر الجاهلي ثم زمن الرسالة ثم عصور التأليف ناظرين إلى معناها في كل عصر باحثين عن مراحل التحول والتطور التي طرأت عليها، مستعينين بالله مستلهمين منه العون والتوفيق في كل ذلك.

معنى «العرب»
بين معاجم اللغة والتاريخ القديم

رأينا فيما سبق الترابط الوثيق بين لفظتي «عرب» و«أعراب» من حيث الجذر اللغوي المشترك ومن حيث المعنى الذي لا يكاد ينفك حتى في أذهان اللغويين الذين يقولون بالتباين التام بين اللفظتين، ورأينا أن هذه الاستماتة في النفي لا تتكئ على شيء أكثر من المعنى الذي استقر لديهم لكلمة «أعراب»، ورأينا أن مقاييس اللغة لا تأبى هذا الترابط بل إنها لا تسعف في نفيه ابتداءً، مما جعل بعض اللغويين يؤكدون على ارتباط اللفظتين في الأصل وإن افترقتا عندهم بعد ذلك.

إن واقع معاجم اللغة في معالجة لفظة «أعراب» مبني على قلقها في لفظة «عرب» التي ليست أفضل حالًا من أختها بل هي المنطلق لذلك القلق، ولن نستطرد في الحديث عن الاضطراب في لفظة «عرب» في المعاجم، بل إننا لن نعرضه لظهور اضطرابه وسفوره، ولكننا سنكتفي برأي علماء التاريخ الذين بحثوا هذه المعضلة التي زادها علماء اللغة تعقيدًا حتى أصبحت أعقد من ذنب الضب، والحق أننا لم نفاجأ بما قرره مؤرخو الأدب أو أهل التاريخ

العام فيما يتعلق بتقريرات اللغويين في أصل لفظة «عرب» التي هي أخت «أعراب» في جميع المواد اللغوية.

وسنبدأ برأي أبرز مَن كتب عن تاريخ العرب قبل الإسلام في عصرنا الحديث وهو جواد علي صاحب المفصل الذي أشار إلى أن المباحث اللغوية التي جاءت في المعاجم أو كتب اللغة والأدب في أصل كلمة «عرب» مباحث لا تعتمد على أكثر من الظنون، وأن جميع ما اعتمدته في ذلك إسلامي لا يمتد إلى عصر ما قبل الإسلام، فنراه يقول: «وإذا ما سألتني عن معنى لفظة (عرب) عند علماء العربية؛ فإني أقول لك: إن لعلماء العربية آراء في المعنى، تجدها مسطورة في كتب اللغة وفي المعجمات؛ ولكنها كلها من نوع البحوث المألوفة المبنية على أقوال وآراء لا تعتمد على نصوص جاهلية ولا على دراسات عميقة مقارنة، وضعت على الحدس والتخمين، وبعد حيرة شديدة في إيجاد تعليل مقبول فقالوا ما قالوه مما هو مذكور في الموارد اللغوية المعروفة، وفي طليعتها المعجمات وكتب الأدب، وكل آرائهم تفسير اللفظة وفي محاولة إيجاد أصلها ومعانيها، هو إسلامي، دون في الإسلام»[1].

ونجد رأيًا آخر أكثر تصريحًا وأكثر حدة في موقفه مما كتب في المعاجم عن معنى «عرب»، وهو رأي واحد من أشهر مؤرخي الأدب في العصر الحديث أعني بذلك ما قاله

---

(١) **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، لجواد علي ١: ١٤.

مصطفى الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب: «لعلماء اللغة كلام مسهب في وجه تسمية العرب بهذا الاسم، وقد استوفى الزبيدي قسمًا منه في شرحه على القاموس، ولا فائدة في جميعه؛ لأن مداره على اشتقاق اللفظة من (عربة) التي قالوا إنها باحة العرب ـ واختلفوا بين أن تكون مكة أو تهامة ـ أو ارتجالها كغيرها من أسماء الأجناس؛ أو هم سموا كذلك لإعراب لسانهم، أي: إيضاحه وبيانه؛ لأنه أوضح الألسنة وأعربها عن المراد بوجوه من الاختصار.

والصحيح أن اللفظة قديمة يراد بها في اللغات السامية معنى البدو والبادية، وتلك خصيصة العرب في التاريخ القديم»[١].

إذن فما ذكره المعجميون في أصل اسم العرب ونقله الزبيدي في التاج لا فائدة في جميعه كما يقول الرافعي، فلفظة «عرب» في جميع اللغات التي اصطلح على تسميتها باللغات السامية ـ واللغة العربية إحداها ـ لا يقصد بها إلا البدو والبادية.

إن هذا المدخل لمعنى «عرب» يفسد ما ذهب إليه المعجميون من أن العرب لا تطلق على سكان البادية، وجعل البادية تختص باسم «الأعراب».

وما ذكره الرافعي هنا مجمل يحتاج إلى تفصيل، وقد فصل في هذا تفصيلًا وافيًا جواد علي، فقد تتبع اللفظة في

(١) **تاريخ آداب العرب**، لمصطفى صادق الرافعي ١ :٣٦.

لغات الأمم التي كان لها بالعرب اتصال بأي شكل كان، ثم تتبعها عند ذات العرب في جنوب جزيرة العرب وشمالها فلم نجده يخرج إلا بالنتيجة نفسها التي قررها الرافعي قبله وهي أن لفظة العرب لا تعني في العصور القديمة إلا سكان البادية فقط، وهم من اصطلح أخيرًا على تسميتهم بالأعراب، وسوف ننقل كلام جواد علي بطوله وإن استوعب صفحات من هذا المبحث لأهميته وتتبعه الدقيق لاستعمال هذه اللفظة وعلى من تطلق.

قال جواد علي: «أما المستشرقون وعلماء التوراة المحدثون؛ فقد تتبعوا تأريخ الكلمة، وتتبعوا معناها في اللغات السامية، وبحثوا عنها في الكتابات الجاهلية وفي كتابات الآشوريين فيه لفظة «عرب» هو نص آشوري من أيام الملك «شلمنصر الثالث» «الثاني؟» ملك آشور. وقد تبين لهم أن لفظة «عرب» لم تكن تعني عند الآشوريين ما تعنيه عندنا من معنى، بل كانوا يقصدون بها بداوة وإمارة «مشيخة» كانت تحكم في البادية المتاخمة للحدود الآشورية، كان حكمها يتوسع ويتقلص في البادية تبعًا للظروف السياسية ولقوة شخصية الأمير، وكان يحكمها أمير يلقب نفسه بلقب «ملك» يقال له «جنديبو» أي «جندب» وكانت صلاته سيئة بالآشوريين. ولما كانت الكتابة الآشورية لا تحرك المقاطع، صعب على العلماء ضبط الكلمة؛ فاختلفوا في كيفية النطق بها، فقرئت «aribi» و«arubu» و«aribu» و«arub» و«arabi» و«urbi» و«arbi» إلى غير ذلك من قراءات. والظاهر أن صيغة «urbi» كانت من

الصيغ القليلة الاستعمال، ويغلب على الظن أنها استعملت في زمن متأخر، وأنها كانت بمعنى «أعراب» على نحو ما يقصد من كلمتي «عربي» و«أعرابي» في لهجة أهل العراق لهذا العهد. وهي تقابل كلمة«عرب» التي هي من الكلمات المتأخرة كذلك على رأي بعض المستشرقين. وعلى كل حال فإن الآشوريين كانوا يقصدون بكلمة «عربي» على اختلاف أشكالها بداوة ومشيخة كانت تحكم في أيامهم البادية تمييزًا لها عن قبائل أخرى كانت مستقرة في تخوم البادية».

ووردت في الكتابات البابلية جملة «ماتواربي» «matu a-ra-bi»، «Matu arabaai»، ومعنى «ماتو» «متو» أرض، فيكون المعنى «أرض عربي»، أي «أرض العرب»، أو «بلاد العرب»، أو «العربية»، أو «بلاد الأعراب» بتعبير أصدق وأصح؛ إذ قصد بها البادية، وكانت تحفل بالأعراب. وجاءت في كتابة «بهستون» بيستون» «behistun» لدار الكبير «داريوس» لفظة «أرباية» «عرباية» «arabaya»، وذلك في النص الفارسي المكتوب باللغة «الأخمينية«، ولفظة ««m ar payah» «arpaya» في النص المكتوب بلهجة أهل السوس «susiana» «susian» وهي اللهجة العيلامية لغة عيلام.

ومراد البابليين أو الآشوريين أو الفرس من «العربية» أو «بلاد العرب». البادية التي في غرب نهر الفرات الممتدة إلى تخوم بلاد الشام.

وقد ذكرت «العربية» بعد آشور وبابل وقبل مصر في نص

«دارا» المذكور. فحمل ذلك بعض العلماء على إدخال طور سيناء في جملة هذه الأرضين. وقد عاشت قبائل عربية عديدة في منطقة سيناء قبل الميلاد.

وبهذا المعنى أي معنى البداوة والأعرابية والجفاف والقفر، وردت اللفظة في العبرانية وفي لغات سامية أخرى، ويدل ذلك على أن لفظة «عرب» في تلك اللغات المتقاربة هي البداوة وحياة البادية، أي بمعنى «أعراب». وإذا راجعنا المواضع التي وردت فيها كلمة «عربي» و«عرب» في التوراة، تجدها بهذا المعنى تمامًا؛ ففي كل المواضع التي وردت فيها في سفر «أشعياء» «Isaiah» مثلًا نرى أنها استعملت بمعنى بداوة وأعرابية، كالذي جاء فيه: «ولا يخيم هناك أعرابي». فقصد بلفظة «عرب» في هذه الآية الأخيرة البادية موطن العزلة والوحشة والخطر، ولم يقصد بها قومية وعلمية لمجلس معين بالمعنى المعروف المفهوم.

ولم يقصد بجملة «بلاد العرب» في الآية المذكورة التي هي ترجمة «مسا هـ ـ عراب» «MASSA HA-arab»، المعنى المفهوم من «بلاد العرب» في الزمن الحاضر أو في صدر الإسلام؛ وإنما المراد بها البادية، التي بين بلاد الشام والعراق وهي موطن الأعراب.

وبهذا المعنى أيضًا وردت في «أرميا»، ففي الآية «وكل ملوك العرب» الواردة في الإصحاح الخامس والعشرين، تعني لفظة «العرب» «الأعرابي»، أي «عرب البادية» والمراد من «وكل ملوك العرب» و«كل رؤساء العرب» و«مشايخهم»،

رؤساء قبائل ومشايخ. لا ملوك مدن وحكومات. وأما الآية: «في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البرية»، فإنها واضحة، وهي من الآيات الواردة في «أرميا». والمراد بها أعرابي من البادية، لا حضري من أهل الحاضرة. فالمفهوم إذن من لفظة«عرب» في إصحاحات «أرميا» إنما هو البداوة والبادية والأعرابية ليس غير.

ومما يؤيد هذا الرأي ورود «ها عرابة ha ’arabah» في العبرانية، ويراد بها ما يقال له: «وادي العربة»، أي الوادي الممتد من البحر الميت أو من بحر الجليل إلى خليج العقبة. وتعني لفظة «عرابة» في العبرانية الجفاف وحافة الصحراء وأرضًا محروفة، أي معاني ذات صلة بالبداوة والبادية، وقد أقامت في هذا الوادي قبائل بدوية شملتها لفظة «عرب». وفي تقارب لفظة «عرب» و«عرابة»، وتقارب معناها، دلالة على الأصل المشترك للفظتين. ويعد وادي «العربة» وكذلك «طور سيناء» في بلاد العرب. وقصد بـ «العربية» برية سورية في «رسالة القديس بوليس إلى أهل غلاطية».

وقد عرف علماء العربية هذه الصلة بين كلمة «عرب» و«عرابة» أو «عربة»؛ فقالوا: «إنهم سموا عربًا باسم بلدهم العربات، وقال إسحاق بن الفرج: عربة باحة العرب، وباحة دار أبي الفصاحة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام». وقالوا: «وأقامت قريش بعربة فتنخت بها، وانتشر سائر العرب في جزيرتها؛ فنسبوا كلهم إلى عربة؛ لأن أباهم إسماعيل، صلى الله عليه وسلم، نشأ وربى أولاده فيها فكثروا. فلما لم

تحتملهم البلاد، انتشروا، وأقامت قريش بها»، وقد ذهب بعضهم إلى أن عربة من تهامة، وهذا لا ينفي على كل حال وجود الصلة بين الكلمتين.

ورواية هؤلاء العلماء، مأخوذة من التوراة، أخذوها من أهل الكتاب، ولا سيما من اليهود وذلك باتصال المسلمين بهم، واستفسارهم منهم عن أمور عديدة وردت في التوراة، ولا سيما في الأمور التي وردت مجملًا في القرآن الكريم والأمور التي تخص تأريخ العرب وصلاتهم بأهل الكتاب.

ويرى بعض علماء التوراة أن كلمة «عرب» إنما شاعت وانتشرت عند العبرانيين بعد ضعف «الإشماعيليين» «الإسماعيليين» وتدهورهم وتغلب الأعراب عليهم حتى صارت اللفظة مرادفة عندهم لكلمة «إشماعيليين». ثم تغلبت عليهم؛ فصارت تشملهم، مع أن «الإشماعيليين» كانوا أعرابًا كذلك، أي قبائل بدوية تتنقل من مكان إلى مكان، طلبًا للمرعى وللماء. وكانت تسكن أيضًا في المناطق التي سكنها الأعراب، أي أهل البادية. ويرى أولئك العلماء أن كلمة «عرب» لفظة متأخرة، اقتبسها العبرانيون من الآشوريين والبابليين، بدليل ورودها في النصوص الآشورية والبابلية، وهي نصوص يعود عهدها إلى ما قبل التوراة. ولشيوعها بعد لفظة «إشماعيليين»، ولأدائها المعنى نفسه المراد من اللفظة، ربط بينها وبين لفظة «إشماعيليين»، وصارت نسبًا، فصير جد هؤلاء العرب «إشماعيل»، وعُدُّوا من أبناء إسماعيل.

هذا ما يخص التوراة، أما «التلمود»؛ فقد قصدت بلفظة

«عرب» و«عربيم» «arbim» »عربئيم» «arbi'im» الأعراب كذلك، أي المعنى نفسه الذي ورد في الأسفار القديمة، وجعلت لفظة «عربي» مرادفة لكلمة «إسماعيل» في بعض المواضع.

وقبل أن أنتقل من البحث في مدلول لفظة «عرب» عند العبرانيين إلى البحث في مدلولها عند اليونان، أود أن أشير إلى أن العبرانيين كانوا إذا تحدثوا عن أهل المدر، أي الحضر ذكروهم بأسمائهم. وفي سلاسل النسب الواردة في التوراة، أمثلة كثيرة لهذا النوع، سوف أتحدث عنها.

وأول من ذكر العرب من اليونان هو «أسكيلوس، أسخيلوس» «أشيلس» «أخيلوس» «Aeschylus»، «٤٥٦ ـ ٥٢٥» قبل الميلاد» من أهل الأخبار منهم، ذكرهم في كلامه على جيش «أحشويرش» «xerxes»، وقال: إنه كان في جيشه ضابط عربي من الرؤساء مشهور. ثم تلاه «هيرودوتس» شيخ المؤرخين «نحو ٤٨٤ ـ ٤٢٥ قبل الميلاد»، ؛ فتحدث في مواضيع من تأريخه عن العرب حديثًا يظهر منه أنه كان على شيء من العلم بهم. وقد أطلق لفظة «arabae» على بلاد العرب، البادية وجزيرة العرب والأرضين الواقعة إلى الشرق من نهر النيل؛ فأدخل «طور سيناء» وما بعدها إلى ضفاف النيل في بلاد العرب.

فلفظة «العربية» «arabae» عند اليونان والرومان، هي في معنى «بلاد العرب». وقد شملت جزيرة العرب وبادية الشام. وسكانها هم عرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم،

على سبيل التغليب؛ لاعتقادهم أن البداوة كانت هي الغالبة على هذه الأرضين؛ فأطلقوها من ثم على الأرضين المذكورة.

وتدل المعلومات الواردة في كتب اليونان واللاتين المؤلفة بعد «هيرودوتس» على تحسن وتقدم في معارفهم عن بلاد العرب، وعلى أن حدودها قد توسعت في مداركهم فشملت البادية وجزيرة العرب وطور سيناء في أغلب الأحيان؛ فصارت لفظة «arabae» عندهم علمًا على الأرضين المأهولة بالعرب والتي تتغلب عليها الطبيعة الصحراوية، وصارت كلمة «عربي» عندهم علمًا للشخص المقيم في تلك الأرضين، من بدو ومن حضر؛ إلا أن فكرتهم عن حضر بلاد العرب لم تكن ترتفع عن فكرتهم عن البدوي، بمعنى أنهم كانوا يتصورون أن العرب هم أعراب.

ووردت في جغرافية «سترابون» كلمة «أرمي» «erembi»، ومعناها اللغوي الدخول في الأرض أو السكنى في حفر الأرض وكهوفها، وقد أشار إلى غموض هذه الكلمة وما يقصد بها، أيقصد بها أهل «طرغلوديته» «troglodytea» أي «سكان الكهوف» أم العرب؟ ولكنه ذكر أن هناك من كان يريد بها العرب، وأنها كانت تعني هذا المعنى عند بعضهم في الأيام المتقدمة، ومن الجائز أن تكون تحريفًا لكلمة «arabi» فأصبحت بهذا الشكل.

أما الإرميون؛ فلم يختلفوا عن الآشوريين والبابليين في مفهوم «بلاد العرب». أي ما يسمى بـ«بادية الشام» وبادية

السماوة. وهي البادية الواسعة الممتدة من نهر الفرات إلى تخوم الشام. وقد أطلقوا على القسم الشرقي من هذه البادية، وهو القسم الخاضع لنفوذ الفرس، اسم «بيت عرباية» «beth' arb'aya» و «باعرباية» «ba'arabaya»، ومعناها «أرض العرب». وقد استعملت هذه التسمية في المؤلفات اليونانية المتأخرة. وفي هذا الاستعمال أيضًا معنى الأعرابية والسكنى في البادية.

ووردت لفظة «عرب» في عدد من كتابات «الحضر». وردت مثلًا في النص الذي وسم بـ«**٧٩**» حيث جاء في السطرين التاسع والعاشر «وبجندًا دعرب»، أي: «وبجنود العرب». وفي السطر الرابع عشر: «وبحطر وعرب»، أي «وبالحضر وبالعرب». ووردت في النص: «**١٩٣**»: «ملكادي عرب»، أي «ملك العرب» وفي النص «**١٩٤**» وفي نصوص أخرى. وقد وردت اللفظة في كل هذه النصوص بمعنى «أعراب»، ولم ترد علمًا على قوم وجنس، أي بالمعنى المفهوم من اللفظة في الوقت الحاضر هذا، وليست لدينا كتابات جاهلية من النوع الذي يقول له المستشرقون «كتابات عربية شمالية»، فيها اسم «العرب»، غير نص واحد، هو النص الذي يعود إلى «امرئ القيس بن عمرو». وقد ورد فيه: «مر القيس بر عمرو، ملك العرب كله، ذو إسرالتج وملك الأسدين ونزروا وملوكهم وعرب مذحجو...». ولورود لفظة «العرب» في هذا النص الذي يعود عهده إلى سنة «**٣٢٨**م» شأن كبير؛ غير أننا لا نستطيع أن نقول: إن لفظة «العرب» هنا، يراد بها العرب بدوًا وحضرًا، أي: يراد بها

العلم على قومية، بل يظهر من النص بوضوح وجلاء أنه قصد «الأعراب»، أي القبائل التي كانت تقطن البادية في تلك الأيام.

أما النصوص العربية الجنوبية؛ فقد وردت فيها لفظة «أعرب» بمعنى «أعراب»، ولم يقصد بها قومية، أي علم لهذا الجنس المعروف، الذي يشمل كل سكان بلاد العرب من بدو ومن حضر، فورد: «وأعرب ملك حضرموت»، أي «وأعراب ملك حضرموت»، وورد: «وأعرب ملك سبأ»، أي «وأعراب ملك سبأ». وكالذي ورد في نص «أبرهة»، نائب ملك الحبشة على اليمن؛ ففي كل هذه المواضع ومواضع أخرى، وردت بمعنى «أعراب».

أما أهل المدن والمتحضرون، فكانوا يعرفون بمدنهم أو بقبائلهم، وكانت مستقرة في الغالب. ولهذا قيل «سبأ» و«همدان» و«حمير» وقبائل أخرى، بمعنى أنها قبائل مستقرة متحضرة، تمتاز عن القبائل المتنقلة المسماة «أعرب» في النصوص العربية الجنوبية؛ مما يدل على أن لفظة «عرب» و«العرب» لم تكن تؤدي معنى الجنس والقومية ذلك في الكتابات العربية الجنوبية المدونة والواصلة إلينا إلى قبيل الإسلام بقليل «٤٤٩م» «٥٤٢م». والرأي عندي أن العرب الجنوبيين لم يفهموا هذا المعنى من اللفظة إلا بعد دخولهم في الإسلام، ووقوفهم على القرآن الكريم، وتكلمهم باللغة التي نزل بها، وذلك بفضل الإسلام بالطبع. وقد وردت لفظة «عرب» في النصوص علمًا لأشخاص.

وقد عرف البدو، أي سكان البادية، بالأعراب في عربية

القرآن الكريم. وقد ذكروا في مواضع من كتاب الله، وقد نعتوا فيه بنعوت سيئة، تدل على أثر خلق البادية فيهم. وقد ذكر بعض العلماء أن الأعراب بادية العرب، وأنهم سكان البادية.

والنص الوحيد الذي وردت فيه لفظة «العرب» علمًا على العرب جميعًا من حضر وأعراب، ونعت فيه لسانهم باللسان العربي، هو القرآن الكريم»[1].

لقد تبين لنا مما تقدم أن لفظة «عرب» كانت تستعمل في العصور القديمة داخل جزيرة العرب وخارجها بمعنى البدو والبادية الرحل، وآخر ما عثر عليه من الدلائل على هذا الاستعمال كان قبيل الإسلام بقليل، مما يعني أن قول القائلين بأن «عرب» تختص بأهل القرى دون البادية قول لا يقوم على حجة ولا ينهض به دليل، بل تبين لنا ضده إذ أن أصل إطلاق «عرب» إنما هو متوجه لسكان البادية، وإن شملت فيما بعد سكان القرى المقيمين، وذلك عندما استقر بعض تلك البوادي الرحل واشتغلوا بالزراعة مما استوجب ظهور مصطلحي البادية والحاضرة للتفريق بين العرب الرحل والعرب المقيمين الذين لا يرتحلون.

ويجب أن ننبه إلى أن لفظة «أعراب» و«أعرابي» التي تكررت في كلام جواد علي إنما أوردها شرحًا وتفسيرًا للنصوص القديمة التي جاءت فيها لفظة «عرب» وأن

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١: ١٦ ـ ٢٤.

الأخيرة أينما جاءت في هذه النصوص فإنما المقصود بها البادية والبدو وما أصبح يعرف في المعاجم بـ«الأعراب».

ومن اللافت للنظر أن العرب وخلطاءهم الذين يعيشون اليوم في مواطن الشعوب القديمة التي استعملت لفظة «عرب» بمعنى البدو الرحل أو القبائل البدوية، لا يزال يسمع منهم هذا الإطلاق، فكثيرًا ما يسمع إلى اليوم في العراق والشام ومصر إطلاق «العرب» وصفًا للبادية، ومن ممازحاتهم «يا شيخ العرب» أي يا شيخ القبيلة أو يا شيخ البدو، وربما استعمل بعضهم جمعها «العربان» في سياق النعت بالبداوة، وهذه الاستعمالات ليست مما استجد شيوعه لهذا العصر بل هي استعمالات متوارثة قديمة، وقد كثرت في لغة المؤرخين، ومما يشار إليه هنا أن بعض المشتغلين بالتفسير لحظ استعمال «عرب» بمعنى البادية في كتابات ابن خلدون فظن أن هذا خطأ، أو هو تأثر بلغة العوام التي كان هذا من سنتها في إطلاق «العرب» على أهل البادية فقال: «ولقد استعمل ابن خلدون لفظ العرب خطأً في مقام الأعراب أو استعمله استعمالًا عاميًّا كما كان شائع المفهوم في حياته وأدى هذا إلى فهم تقريراته عن البدو وطبائعهم وحياتهم وآثارهم فهمًا خاطئًا»[1].

والصحيح أن ابن خلدون لم يخطئ في ذلك فهذا إطلاق شائع لدى الشعوب التي تواصلت مع العرب قبل ابن خلدون بآلاف السنين، وابن خلدون مسبوق إليه كذلك من

(١) **التفسير الحديث** لمحمد عزة دروزة ٩: ٥١٩.

مؤرخين إسلاميين، فممن استعمل ذلك قبله ابن الجوزي المتوفى سنة **٥٩٧** للهجرة الذي يقول: «وجاء الخبر: بقلة الماء في طريق مكة وبعدم العشب والجمال فنودي في الناس لا يخرج ماش ولا صاحب تجارة فقعد خلق كثير ورجع قوم قد قدموا من الموصل للحج فعادوا يبيعون زادهم وخرج من خرج على خوف ومخاطرة وعاد جماعة من الحلة ونزل أكثرهم في السفن فخرج عليهم عرب فأخذوا أكثر الأموال وقتل منهم قوم»[(١)].

وممن استعمل ذلك قبل ابن الجوزي عمارة اليمني[(٢)]، وممن استعملها بعده ابن الأثير، والقلقشندي[(٣)] وغيرهم كثير.

ولا أحسب أحدًا من هؤلاء المؤرخين اطلع على شيء مما كتبه مؤرخو العصور القديمة لينقل عنهم هذا الاستعمال، ولكنهم ولدوا وعاشوا في مواطن أولئك الكتبة وفي بيئاتهم الأولى التي توارث أهلها هذا الاستعمال، وأخذه عنهم أبناء الفاتحين من أهل جزيرة العرب.

---

(١) **المنتظم في أخبار الملوك والأمم** لابن الجوزي، ت محمد عبد القادر عطا وآخر ١٨ : ٢٥٢.

(٢) انظر **النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية** لعمارة اليمني، صححه هرتويغ درنبرغ ص ١٤.

(٣) ومن أمثلة ذلك انظر **الكامل في التاريخ**، ٦ : ٦٨٦ **وصبح الأعشى**، ٣ : ٤٤٥.

«عرب» و«أعراب» في استعمال مؤرخي الإسلام وأدباء العربية

إن الناظر إلى استعمال هذه الألفاظ - في غير معاجم اللغة والمنقول عنها - سيجدها تسير في مسارين متوازيين: المسار الأول عند المنطلقين من المفهوم المتوارث عن الشعوب القديمة في معنى «عرب»، وهؤلاء هم جماهير أهل الكتب والمؤلفات من سكان الحواضر الإسلامية، والمسار الثاني عند المنطلقين من مفهوم «عرب» عند القبائل العربية نفسها التي تسميها الفئة الأولى «عرب»، وصوت الأخيرين لا يكاد يسمع، فهم إما أبناء القبائل في قلب جزيرة العرب، وإما المحتفظون بخصائص الانتماء القبلي من سكان المدن الإسلامية.

وكلا المسارين يخالف ما في معاجم اللغة؛ إذ لا فرق في المسارين بين «عرب» و«أعراب»، أما المسار الأول فـ«العرب» و«الأعراب» و«الأعاريب» و«الأعارب» و«العربان» كلها لا تعني فيه إلا القبائل العربية البدوية أو شبه البدوية، ولأن «أعراب» و«أعاريب» و«أعارب» مما نصت المعاجم وكتب اللغة على أنها تعني البوادي فلن أحتاج إلى نقل الشواهد على استعمالها بهذا المعنى، وإنما

سأكتفي بالنقول المتعلقة بـ«عربان» ـ التي لم أجدها في معاجم اللغة ـ وأؤكد على ما سبق ذكره من استعمال «عرب» للقبائل العربية البدوية.

إن الذي يتفحص كتب المتقدمين سيجد لفظ «العربان» يرد عليه بمعنى القبائل البدوية أو المنتسبين إلى القبائل على وجه الإجمال، ومن أقدم من وجدته استعمل «العربان» بهذا المعنى الجويني المتوفى سنة **٤٨٧** للهجرة فهو يقول: «وعربان البرية من أضعف الخليقة والبرية، ولا حاجة في استئصال شأفتهم واقتلاع كافتهم إلى صدماتٍ مبيرةٍ، وكتائب هجامةٍ مغيرةٍ، بل يكفيهم أن يقطع عنهم من أطراف البلاد الميرة، وليست كفاية غوائلهم بالعسيرة»[(١)].

وممن استعملها بهذا المعنى ابن القلانسي المتوفى سنة **٥٥٥** للهجرة الذي يصف حال حجاج اعتدي عليهم عند عودتهم إلى بلادهم: «وفي أيام من المحرم وصل إلى دمشق جماعة من حجاج العراق وخراسان المأخوذون في طريق الحج عند عودهم لجماعة من كفار العربان وزطهم وأوباشهم تجمعوا في عدد دثر وحكوا مصيبةً ما نزل مثلها بأحد في السنين الخالية ولا يكون أشنع منها»[(٢)].

فـ«العربان» هنا تعني القبائل البدوية، وهي كذلك في

---

(١) **غياث الأمم في التياث الظلم** لإمام الحرمين الجويني، ت عبد العظيم الديب ٣٧٠.

(٢) **تاريخ دمشق** لأبي يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي، ت سهيل زكار ٤٨١.

كلام عماد الدين الأصبهاني المتوفى سنة **٥٩٧** للهجرة الذي يصف ملاحقة جرت لبعض عساكر المسلمين لكفار الفرنجة: «فركب أصحابنا وراءهم خيول العربان التي وجدوها وأسروا الكفار من شعاب وجبال اعتصموا بها وقصدوها وكفي المسلمون اشد فساد في أرضهم»[(١)].

واستعملها بعدهم أبو الحسن الآمدي المتوفى سنة **٦٣١** للهجرة الذي يصف حال من لا يحتكم إلى سلطان فيقول: «ولهذا نرى العربان والخارجين عن حكم السلطان كالذئاب الشاردة والأسود الكاسرة لا يبقي بعضهم على بعض ولا يحافظون في الغالب على سنة ولا فرض»[(٢)].

ورأينا هذا الاستعمال بعد ذلك يشيع شيوعًا كبيرًا لدى المؤرخين ـ خاصة مؤرخي الشام ومصر ـ فمنذ أواسط القرن السابع وهذا اللفظ لا يكاد يغيب عن أي كتاب من كتب التاريخ الإسلامي وهو في غالب استعمالهم لا يعني أكثر من عرب البادية ولا يتضمن ـ في الغالب ـ معنى سلبيًا[(٣)].

---

(١) **البرق الشامي** لعماد الدين الكاتب الأصبهاني، ت فالح حسين ٥: ٧٢.

(٢) **غاية المرام في علم الكلام**. لأبي الحسن سيف الدين علي بن أبي علي الثعلبي الآمدي، ت حسن محمود عبد اللطيف ٣٧٤.

(٣) انظر إن شئت التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي، وزبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وذيل مرآة الزمان لليونيني، والمختصر في أخبار البشر لابن كثير، وتاريخ الإسلام، والعبر في خبر من غبر كليهما للذهبي، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، وجميع ما كتب في التواريخ والتراجم بعد ذلك ككتب المقريزي وابن حجر والعيني والقلقشندي وابن خلدون وغيرهم.

ووجدنا في بعض استعمالات العلماء ما يؤكد على قصدهم إلى أن العربان ليسوا مجرد سكان البادية وإنما هم المنتسبون إلى العرب خاصة قال اليونيني المتوفى سنة **٧٢٦** للهجرة: «ثم بعثوا إلى صاحب تونس يطلبونه لمبارزتهم فقال ليس فيكم ملك متوج حتى أخرج إليه وإنما الذين معكم جنود فأنا أبعث إليهم أكفاءهم ثم أنفق في العربان وأمرهم بالاحتياط بهم فخافت الفرنج وخندقوا على أنفسهم جميع شهر ذي الحجة فلما هل المحرم سنة تسع ومضت منه أيام خرج الفرنج وقاتلوا قتالًا شديدًا ولم يكن في المسلمين من الجند أحد إنما هم عربان وبربر وعوام»(١).

فالعربان هنا القبائل العربية البدوية، فقد استعملها في مقابل البربر التي هي بادية أيضًا، واستعملها كذلك في مقابل العوام التي قد يكون منها عرب وغير عرب ولكنهم من الحواضر، فـ«العربان» هنا يشار بها إلى جنس العرب المنتسبين إلى القبائل.

وربما حدد بعض المؤرخين «العربان» المقصودين ونسبهم إلى قبائلهم من العرب كما ورد عند ابن كثير في هذا الخبر عن حدث وقع في سنة **٧١٣** للهجرة: «وفيها اجتمع جماعة من بني لام، من عربان الحجاز، وقصدوا قطع الطريق على سوقة الركب، الذين يلاقونهم من البلاد إلى تبوك عند عود الحاج، وساروا إلى ذات حج واتقعوا

---

(١) **ذيل مرآة الزمان** لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني، دار الكتاب الإسلامي ٢: ٤٥٥.

مع السرقة، فقتل من السوقية تقدير عشرين نفسًا، وأكثر. ثم انتصروا على بني لام وهزموهم، وأخذوا منهم تقدير ثمانين هجينًا، وعادت بنو لام بخفي حنين»[(١)].

والذي ينظر إلى استعمالات هؤلاء المؤرخين يجدهم يناوبون في الاستعمال بين «عرب» و«عربان» التي لا تعني عندهم إلا القبائل العربية وهذا ظاهر في استعمالهم، وقد سبق أن أشرنا إلى أن «عرب» تعني عند كثير من مؤرخي الإسلام خارج جزيرة العرب ما كانت تعنيه في لغات العصور القديمة وهو سكان البادية من قبائل العرب في شمال الجزيرة والحجاز ونجد.

ومن الاستعمال الترادفي بين «عرب» و«عربان» وأن الثانية في استعمالهم ليست إلا جمعًا للأولى ما جاء عند ابن نظيف الحموي المتوفى في القرن السابع، قال الحموي: «وفيها في الشهر أيضًا غارت العرب وهم غزية البطنين وغيرهم على بلد حمص وأخذوا حتى غنم أهل البلد فوقع الصوت وركب العسكر وتبعوا العربان إلى معظم الطريق»[(٢)].

فـ«العرب» هنا قبيلة غزية العربية ومن كان معهم من غيرهم، وهم كذلك «العربان».

ومثل هذا الاستعمال الترادفي نجده عند ابن فضل الله

---

(١) **المختصر في أخبار البشر** لعماد الدين ابن كثير، المطبعة الحسينية المصرية ٤ : ٧٤.

(٢) **التاريخ المنصوري** لابن نظيف الحموي، ت أبو العبد دودو ١٤١.

العمري المتوفى سنة **٧٤٩** للهجرة حيث يقول: «ويأخذ من العربان بهائم أقطعت لأمراء عربان مصر من سليم، وهم الآن يستأذون من عرب برقة العداد»[١].

فالعربان والعرب هنا قبائل عربية، والمعنى واحد ولا فرق فيه إلا إرادة التعدد في الأول.

وكذلك استعمله المقريزي المتوفى سنة **٨٤٥** للهجرة في قوله: «وأما العسكر المجرد لنجدة صاحب اليمن فإنه سار إلى مكة وقد كتب السلطان إلى الشريف عقيل أمير ينبع وإلى الشريفين عطيفة ورميثة أميري مكة وإلى قوادهما وإلى بني شعبة وعرب الواديين وسائر عربان الحجاز بالقيام في خدمة العسكر»[٢].

فالحديث كله عن قبائل عربية منهم المسمى المنسوب «بني شعبة» ومنهم العدد القليل المحدد بموقع محدود الذي يغلب على الظن أنه قبيلة واحدة غير مسماة «عرب الواديين»، ومنهم الأعداد الكبيرة في منطقة واسعة وشاسعة تسكنها قبائل كثيرة ومتعددة «عربان الحجاز».

واستعملها القلقشندي معاصر المقريزي الذي سبقه بالوفاة إذ كانت وفاته سنة **٨٢١** للهجرة حيث قال عند

---

(١) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** لأحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، نشر المجمع الثقافي، أبو ظبي ٣: ٥٠٣.

(٢) **السلوك في معرفة دول الملوك** لتقي الدين المقريزي، ت محمد عبد القادر عطا ٣: ٨٢.

تفصيله في واقع قبائل العرب في الشام مفرقًا بين «العرب» و«العربان» من جهة وبين الحواضر من جهة أخرى:

«النوع الثاني مما هو خارج عن حاضرة حلب العربان:

واعلم أنه قد تقدم في الكلام على آل فضل من عربان دمشق أن منازلهم ممتدة بأراضي الشام إلى الرحبة وجعبر في جانب الفرات. . .

والمختص بأعمال حلب من العرب المشهورين قبيلتان:

القبيلة الأولى ـ (بنو كلاب) قال في «مسالك الأبصار»: وهم عرب أطراف حلب والروم»[١].

فالعرب والعربان هنا القبائل العربية، وهي تقابل حاضرة حلب التي لا تدخل في النظام القبلي حتى وإن كانت أصولها تنتمي إلى القبائل العربية.

وهذا المعنى مصرح به في كلام بعض هؤلاء المؤرخين، إذ جعلوا من اندمج في الحواضر وعاش خارج النظام والانتماء القبلي خارجًا من مفهوم «العرب» التي تعني في أكثر استعمالهم القبائل العربية البدوية، وربما شملت أحيانًا المنضوين تحت النظام القبلي من البوادي وأهل القرى.

قال ابن فضل الله العمري: «قلت: وبالشام من صليبة العرب أقوام شتى في البلاد قد خرجوا بها عن حكم العرب وصاروا بها أهل حاضرة ساكنة، وعمار ديار قاطنة، فبمدينة غزة وبلد الخليل عليه السلام معمور بني تميم الداري رضي الله عنه»[٢].

---

(١) **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** لأحمد بن علي القلقشندي، العلمية ٤: ٢٣٧.

(٢) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** ٤: ٣٥٨.

فقوله «خرجوا بها عن حكم العرب» يعني حكم القبيلة العربية البدوية وهذا واضح في مقابلته لذلك بـ«حاضرة ساكنة عمار ديار»، ولا يعني بذلك خروجهم عن مفهوم العرب التي هي أمة من الأمم تقابل الفرس والروم والترك.

فـ«العرب» و«العربان» و«الأعراب» و«الأعاريب» في كتب المؤرخين تطلق على القبائل العربية بالمفهوم الذي أوضحناه وهذا مشهور جلي لا يحتاج لأكثر من قراءة عابرة في كتب التاريخ الإسلامي.

فلا فرق من أي وجه بين «العرب» و«الأعراب» و«العربان» وصيغ الجموع الأخرى، فكلها عند هؤلاء تعني القبائل العربية البدوية، فليس «العرب» هنا «أهل الأمصار خاصة» كما نصت المعاجم، بل إن في صريح كلام بعض هؤلاء المؤرخين إخراج أهل الأمصار من مفهوم «العرب» الذي بينا مقصودهم به، وأنهم لا يعنون به إخراجهم من مفهوم جنس العرب وإنما أرادوا مفهوم النظام القبلي.

واستعمال «العرب» بمعنى القبائل العربية البدوية في لغات العصور القديمة مشهور فصلت فيه الدراسات التاريخية الحديثة، والجموع «الأعراب» و«العربان» و«الأعاريب» و«الأعارب» تعني عند العرب ما تعنيه لفظة «عرب» لا غير. وقد امتزجت المعاني في حواضر الإسلام، المفهوم الأول لـ«عرب» عند أهل الأرض الأصليين وجموعه التي عرفوها بتعربهم بعد الفتوح وقيام الدول الإسلامية المتعاقبة في بلادهم، مع ما شاع من معنى

«أعراب» في عصور التأليف من أنها لا تعني إلا سكان البادية، وهنا اتحد عندهم معنى «عرب» القديم ومعنى «أعراب» الجديد، فصارت كلها تطلق على القبائل القادمة من جزيرة العرب، باعتبار كل قادم من جزيرة العرب ممن ينتمي إلى القبائل العربية بدويًّا.

أما في جزيرة العرب فهذه الألفاظ تطلق في استعمال الفصحاء على القبائل العربية حاضرة وبادية، ولا تختص سكان البادية دون غيرهم، مع تفريقهم الواضح بين سكان القرى من القبائل وسكان البوادي.

وهذا الاستعمال الجزري الفصيح الذي تطلق فيه هذه الألفاظ على معنى واحد يشمل كل العرب الذين أصبحوا أمة تقابل الأمم الأخرى لم ينقطع خارج جزيرة العرب في استعمال الناس بالكلية، بل إنه ربما تسلل إلى ألسنة بعض الفقهاء والكتاب والشعراء فاستعملوه بمعنى أمة العرب، ومن ذلك قول الأمير محمد بن سلطان ابن حيوس الغنوي المتوفى سنة **٤٧٣** للهجرة في مدح عز الملوك المرداسي آخر أمراء حلب من الأسرة المرداسية:

وكانت الترك بالأعراب جاهلة
حتى أتحت لها أن تعرف العربا[(١)]

فالأعراب هنا العرب، وهي الأمة التي تقابل الترك.

وممن استعملها بمعنى جنس العرب الذي يقابل جنس

(١) **ديوانه**، عني بنشره وتحقيقه خليل مردم بك دار صادر، ١:٥٢.

الروم الأمير ابن سنان الخفاجي صاحب الكتاب الشهير «سر الفصاحة» المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة وذلك في قوله:

لا أطلب الرزق من سيفٍ ولا قلم
ولا أفكر في روم وأعراب[١]

وممن استعملها كذلك بهذا المعنى عبد الرحيم البرعي[٢] في بعض مدائحه النبوية:

فغدوت بالقدمين أشرف من مشى
في الأرض من عجم ومن أعراب[٣]

فقطعًا إن «الأعراب» هنا لا تعني البوادي فقط، فالرسول ﷺ خيرٌ من كل العرب والعجم على الإطلاق.

وجاءت في شعر ابن عربي الطائي المتوفى سنة ٦٤٠ للهجرة فاستعملها بمعنى جنس العرب في مقابلة العجم:

هذا الذي قلته الألباب تجهله
وليس تثبته الأعراب والعجم[٤]

وجاءت كذلك على لسان ابن نباته المصري وهو شاعر أديب كاتب توفي سنة ٧٦٨ للهجرة:

---

(١) **ديوانه**، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق حققه وشرحه وعلق عليه د. مختار الأحمدي نويوات ود. نسيب نشاوي ص ٦٨٧.

(٢) هو عبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي الهاجري اليماني فقيه وشاعر متصوف اختلف في وفاته فالأشهر أنها كانت عام ٨٠٣ للهجرة، وهناك من يقول أنه ممن عاش في القرن الخامس الهجري، انظر في ذلك ترجمة البرعي في مقدمة ديوانه ٦.

(٣) **ديوان البرعي**، اعتنى به د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية ص ٤٢.

(٤) **ديوانه**، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣٦٠.

من لي بها حسناء معرب حسنها
زاهٍ على الأعراب والأعجام
من يافث في حسنها أو فرعها
تلقاك في سامٍ يصول وحام[١]

فالأعراب هنا جنس يقابل الأجناس البشرية الأخرى، وجاءت كذلك في مثل قوله مادحًا:

إليك جلال الدين أصبحت العلى
وسلم أعراب الورى والأعاجم[٢]

وإذا نظرنا إلى شعراء العرب وأدبائهم المتأخرين، فسنجد كثيرًا منهم يستعمل هذه اللفظة بمعنى «العرب» الأمة لا البوادي خاصة، ومن مشاهير أدباء العرب وبلغائهم في القرن الثالث عشر الهجري الأديب اللبناني ناصيف اليازجي صاحب كتاب «مجمع البحرين» المتوفى سنة **١٢٨٨** للهجرة الذي يقول مخاطبًا أحد أدباء الإسكندرية:

لما رأيتك ترعى ذمة العرب
علمت أنك فيها خالص النسب
وكيف تنكر في الأعراب نسبته
فتىً له عمر الفاروق خير أب[٣]

واستعملوا كذلك «أعاريب» التي هي جمع «أعراب»، واستعملوا «أعارب» التي يجعلها بعض اللغويين جمعًا

---

(١) **ديوان ابن نباتة المصري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٤٦٩.
(٢) نفسه ٤٣٣.
(٣) **ديوانه**، المطبعة الأدبية، بيروت ١٨٩٨م، ص ٦٩.

لـ«أعراب»، واستعملوا «عربان» التي لم أجدها في المعاجم مع ورودها في بعض شعر الاحتجاج، كل ذلك يستعملونه بمعنى «العرب» الأمة والجنس البشري الذي يقابل العجم والترك والروم والأجناس البشرية الأخرى.

من ذلك قول ابن أبي حصينة الأمير الشاعر المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة أو ٤٥٧ مادحًا أحد بني مرداس أمراء حلب:

فتىً فخرت قيسٌ به كيف عامرٌ
وطالت به الأحباش كيف الأعاريب(١)

وجاء مثل هذا الاستعمال في شعر الأمير ابن سنان الخفاجي الذي يتأسف على حاله وتغربه في بلاد الروم:

وا أسفي من غربة طوحت
فيها إلى الروم الأعاريب
قادنيَ الدهر إليها ومن
يجاذب الأقدار مغلوب(٢)

وقال المحققان تعليقًا على موضع الشاهد هنا: «الأعاريب جمع أعراب وقصد بها العرب الخلص».

وممن استعمل «أعاريب» بمعنى «عرب» التي هي الأمة التي تقابل الأمم الأخرى مخالفًا بذلك ما جاء في معاجم

---

(١) **ديوانه**، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، سمعه وشرحه أبو العلاء المعري، تحقيق محمد أسعد طلس، دار صادر، بيروت، ص ٢٩٠.

(٢) **ديوانه**، مرجع سابق.

اللغة، الأديب والكاتب الشهير عماد الدين الأصبهاني المتوفى سنة **٥٩٧** للهجرة:

أرجو إيابي إليكم ظافرًا عجلًا
فقد ظفرت بنجم الدين أيوب
موفق الرأي ماضي العزم مرتفعٌ
على الأعاجم مجدًا والأعاريب[(١)]

واستعملها كذلك في مقابل الأعاجم أحمد بن سعيد الخروصي الستالي المتوفى سنة **٦٧٦** للهجرة في قصيدة يمدح بها السلطان محمد بن عبد الله الرئيس:

إلى أعز بني الدنيا وأشرفهم
من الأعاجم طرًّا والأعاريب[(٢)]

ومثل «أعاريب» «أعارب»، التي استعملها الشعراء بمعنى «العرب» الأمة التي تقابل غيرها من الأمم ومن ذلك قول ابن نباتة السعدي التميمي المتوفى سنة **٤٠٥** للهجرة:

أنت الذي اعترفت بسؤ دده الأعارب والأعاجم[(٣)]

فـ«الأعارب» هنا تعني جنس العرب.

واستعملها بالمعنى نفسه الشريف الرضي المتوفى سنة **٤٠٦** للهجرة:

---

(١) **معجم الأدباء** لياقوت الحموي، ت إحسان عباس ٦: ٢٦٢٤.

(٢) **ديوانه**، تحقيق عز الدين التنوخي، وزارة التراث والثقافة، مسقط، عمان، ص ٥٠.

(٣) **ديوانه**، دراسة وتحقيق عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، منشورات وزارة الإعلام العراقية ٢: ٢٢١.

فــإن تــر فــيــنــا صــولــةً عــجــرفــيــةً
فقد عرفت فينا الجدود الأعارب(١)

فالشريف الرضي الأمير المنتسب إلى آل البيت يفخر بجدوده «الأعارب» التي يقول بعض أهل اللغة أنها جمع «أعراب» وأن الأخيرة لا يصح إطلاقها على أهل القرى والأمصار من العرب واستعملها بالمعنى نفسه الشريف المرتضى المتوفى سنة **٤٣٦** للهجرة:

مــا ضــر شــيــئًــا مــن نــمــتــه أعــاجــمٌ
ولــديــه آداب الأعــارب تــســطــر(٢)

واستعملوا «عربان» التي هي من جموع «عرب» بمعنى أمة العرب والجنس العربي الذي يقابل الأجناس البشرية، ومن ذلك قول عماد الدين الأصبهاني يمدح الملك العادل نور الدين:

لــلــروم والإفــرنــج مــنــك مــصــائــبٌ
بــالــتــرك والأكــراد والــعــربــان(٣)

ومثله قول لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة **٧٦٦** للهجرة، الذي استعمل «العربان» في مقابل «الترك»:

وتــجــفــل إجــفــال الــنــعــام بــبــرقــةٍ
ليوث الشرى ما بين تركٍ وعربان(٤)

---

(١) **ديوانه**، وزارة الإرشاد الإسلامي، إيران ١: ١٤٥.

(٢) **ديوانه**، شرح محمد ألتونجي، دار الجيل، بيروت ١: ٦٣.

(٣) **عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** لشهاب الدين المقدسي المعروف بأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة ٢: ٢٤٤.

(٤) **ديوانه**، تحقيق د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص ٥٩١.

وهذه الاستعمالات غيض من فيض ترد فيها هذه الألفاظ جميعها بمعنى «العرب» الجنس والأمة، وقد كثر هذا الاستعمال عند شعراء العرب في العصر الحديث وخاصة من عاش منهم في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجريين، من أمثال خليل مطران، وأحمد محرم، ورشيد أيوب، وأحمد الزين، ووديع عقل، وعبد الحميد الرافعي، وأبي الهدى الصيادي، ومطلق عبد الخالق، وغيرهم كثيرون من الشعراء الذين عاصروا أواخر الدولة العثمانية.

وهذه الاستعمالات الكثيرة جدًا التي جاءت على ألسنة شعراء وأدباء وكتاب وعلماء تدل كلها على تجاوز ما جاء في المعاجم من التفريق بين «عرب» و«أعراب»، وأن هذا التفريق لا حجة عليه ولا دليل، فالذي ينظر في المعاجم لا يجد نصًّا عن الفصحاء جاء فيه هذا التفريق، وأن كل ما ذكر ليس إلا آراء لبعض العلماء تناقلتها الكتب لم تبن على نصٍّ فصيح.

إذن فـ«العرب» عند سكان العراق والشام ومصر في العصور القديمة وفي العصور الإسلامية تعني القبائل العربية سواء التي تعيش في قلب جزيرة العرب أو التي انتقلت إلى تلك الحواضر وحافظت على خصائص نظامها القبلي، أما العرب الذين نزلوا الحواضر وتحللوا من تلك الخصائص القبلية فإنا وجدنا من العلماء من أخرجهم من مفهوم

«العرب» بالمعنى الذي سبق أن أشرنا إليه، وما استخدم له لفظ «العرب» استخدمت له تلك الجموع المشتقة منه والتي لا يخرج معناها عنه إلا لإرادة الكثرة والتعدد.

أما في داخل الجزيرة فقد كان اللفظ يطلق على جميع سكانها ممن ينتمي إلى العرب سواء سكن البادية أو سكن القرى على اعتبار أن عقد النظام القبلي لم ينحل لا في الحواضر ولا في البوادي، ولذلك كان القادم من جزيرة العرب إلى الحواضر الإسلامية يسمى أعرابيًّا وإن لم يعش هو ولا أحد من آبائه يومًا واحدًا في البادية، وشواهد هذا التصور كثيرة ومن ذلك تسمية القلقشندي إمارة إمام الزيدية حاكم صنعاء المنتسب إلى الأشراف إمارة أعرابية وتسمية مكاتباته مكاتبات أعرابية حيث يقول: «أما إمام الزيدية باليمن فلم أقف له على مكاتبة، وإن كان المقر الشهابي ابن فضل الله قد أشار في كتابه «التعريف» إلى أنه ورد عنه مكاتبة إلى الأبواب السلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشه على صاحب اليمن، والغالب على الظن أن مكاتبته أعرابية، كما أن إمارته أعرابية؛ إذ لا اعتناء لأهل البادية وعربان الوادي بفن الإنشاء جملة، وإنما يكتب عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم، على أن فيما يأتون به مقنعًا من الفصاحة والبلاغة بكل حال، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يعول»[(١)].

فالقلقشندي يرى أن حاكم صنعاء من أهل البادية وعربان

---

(١) **صبح الأعشى** ٨: ٧٧.

الوادي، وهو الإمام الشريف، وليس هذا على وجه الانتقاص أو الذم، وإنما أراد أن يشير إلى النظام الذي ينتمي إليه وهو النظام القبلي الذي كانت عليه اليمن، وجزيرة العرب جملة.

وهذا الإطلاق مستمر إلى عصرنا هذا فالأعرابية والبداوة في أذهان الناس خارج جزيرة العرب تعني الانتماء القبلي وهي عندهم خصيصة سكان الجزيرة لا يفرقون فيهم بين من يسكن البادية ومن يسكن القرى، ومن ذلك نسبة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب إلى الأعرابية والبداوة توصيفًا لا تنقصًا وازدراءً، كما جاء في كلام أحد محبيه وهو اللواء محمود شيت خطاب وذلك في سياق حديثه عن رحلة الشيخ إلى العراق في طلب العلم ولقائه الشيخ حمد الجميلي: «والشيخ الجميلي نسبة إلى (جميل) مصغر، وهو من أعراب البادية، ولكن ما استحضر من العلوم في خزانة محفوظته أجرتها على لسانه جري الماء المسجوم، كما قيل:

فلو بدا لشيوخ الحضر قمن له

مستقبليه وقلن الفضل للبادي

ولعل من أسباب اختيار الطالب محمد بن عبد الوهاب الدراسة على الشيخ الجميلي بالإضافة إلى أن الشيخ عالم متين، هو أنه من أعراب البادية، والجنس للجنس يميل، وقد وافق شن طبقة، كما يقول المثل العربي المشهور»[(١)].

---

(١) **الإمام محمد بن عبد الوهاب في مدينة الموصل** لمحمود شيت خطاب، مطبوع ضمن ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، نشر عمادة البحث العلمي =

فأهل الجزيرة بمجملهم كانوا عربًا وأعرابًا بهذا المفهوم الشائع في الكتب لأن الانتماء القبلي كان قائمًا في كل ربوعها.

فـ«أعراب» وأخواتها من ألفاظ الجموع تستعمل كلها في لغة كثير من العلماء والشعراء منذ القرن الرابع جمعًا لـ«عرب»، ورأينا المعنى عندهم يختلف عن الذي يشيع في معاجم اللغة وتتناقله كتب الشروح والتفاسير من أن «الأعراب» شيء آخر غير «العرب» وأن الأولى لا تعني إلا البادية، ولا يصح إطلاقها على سكان القرى والأمصار، ورأينا أن الأمر في هذا الاستعمال كله بخلاف تقريرات المعاجم، فـ«العرب» و«الأعراب» وباقي صيغ الجموع لم تكن تطلق خارج جزيرة العرب إلا على القبائل العربية فقط، سواء كانت قبائل بدوية أو قروية، وكان العلماء يخرجون المندمجين في حياة المدن في الحواضر الإسلامية من مفهوم لفظ «العرب» الذي رأينا مقصدهم به.

أما داخل جزيرة العرب فكل السكان الأصليين (حاضرة وبادية) هم «عرب» و«أعراب» و«عربان»... سواء بمفهوم العلماء والشعراء خارج الجزيرة، أو بمفهوم القبائل العربية التي عاشت في بوادي جزيرة العرب وحواضرها، والمعنيان يخالفان ما في معاجم اللغة.

= بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١:٨٢. ونلحظ هنا نسبة الشيخ الجميلي للأعرابية والبداوة مع أن الشيخ الجميلي فقيه الموصل في زمنه ومن كبار المدرسين فيها.

وما ذكرناه من استعمالات العلماء والشعراء لـ«عرب» و«أعراب» بالمعنى المخالف لما في المعاجم لا شك أنه متأخر عن العصور التي يسميها علماء اللغة عصور الاحتجاج، إلا أنه لم يرد في معاجم اللغة ولا عند الناقلين عنها نصٌّ واحد من عصور الاحتجاج فيه تفريق بين معنى «عرب» و«أعراب» ليستدل به على تخطئة هذا الاستعمال الذي رأينا بعضه يمتد من العصور القديمة إلى عصرنا هذا مرورًا بعصور العلماء الذين نقلنا عنهم استعمال «عرب» بمعنى القبائل العربية البدوية.

وإذا عدنا إلى شعر الجاهليين وبعض المخضرمين في قلب جزيرة العرب وقرأناه بأذهان خلو من المعنى الشائع في المعاجم سنجد استعمال «أعراب» وجموعها لا يختلف عن الاستعمال الذي جرى على ألسنة الشعراء العرب والمتعربين الذين نقلنا شواهد موضوعنا من أشعارهم.

«الأعراب» في الشعر الجاهلي

مع ندرة ورود لفظتي «عرب» و«أعراب» في الشعر الجاهلي إلا أن معناهما واحد، فـ«الأعراب» يمكن ردها في كل سياق ترد فيه إلى معنى جمع «العرب» الذي يعني القبائل العربية حاضرة وبادية، إذ إن سكان جزيرة العرب في بواديها وحواضرها لم يكونوا إلا تلك القبائل العربية التي لم ينفرط نظامها القبلي في جميع أنماط الحياة التي تعيشها.

وجملة النصوص التي وردت فيها هذه اللفظة في العصر الجاهلي ـ على قلتها ـ هي لمخضرمين ويمكن ردها إلى معنى «عرب» أو قبائل العرب بغير تكلف ولا تمحل إذا تخلص القارئ من حصار المعنى الذي شاع في عصور التأليف، ولعلنا نقف مع بيت لأشهر الشعراء المخضرمين على الإطلاق وهو حسان بن ثابت رضي الله عنه، وهذا البيت من قصيدة قالها ـ على الأرجح ـ قبل الإسلام؛ لتضمنها بعض المعاني التي تشي بذلك، وهو من الأبيات التي تعجن فيها المعاني إذا فسرت فيها «الأعراب» بسكان البادية كما قررته كتب المعاجم، قال رضي الله عنه يصف راحلته:

فدابت سراها ليلةً ثم عرست
بيثرب والأعراب بادٍ وحاضر

ولو فسرنا الأعراب بمعناها الأول الذي تعرفه العرب وعناه حسان لكان معنى البيت أنه انتهى براحلته في ساعة متأخرة من الليل إلى يثرب وعشائر يثرب وقبائلها منهم البادي المتباعد عن مياه يثرب ومنهم المقيم عليها.

أما إذا فسرناه كما قال البرقوقي ناقلًا ما في المعاجم فالأمر مختلف قال البرقوقي في شرحه للبيت: «قوله فدابت سراها يقول فدأبت فسهل الهمزة والدؤب المبالغة في السير والسرى سير الليل كله والتعريس النزول في آخر الليل وقيل التعريس النزول أي حين كان من ليل أو نهار، والأعراب جمع أعرابي، والأعرابي غير العربي، فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم وارتاد الكلأ وتتبع مساقط الغيب[1] فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية أو غيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب، والأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح بذلك وهش له والعربي إذا قيل له يا أعرابي غضب له. . . والبادي هنا الذي ينتجع في طلب الكلأ والحاضر الذي ينزل على الماء العد كما تقدم»[2].

وتنزيل هذا الشرح المعجمي المنقول بنصه من كلام الأزهري في مادة (عرب) على البيت جعل معناه مضطربًا مختلًا، فيثرب التي عرست بها الراحلة هي قرية من قرى

---

(١) الصحيح الغيث.

(٢) **شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري** لعبد الرحمن البرقوقي ٢١٨.

«العرب» وليست بادية، إلا أن أهلها هنا أعراب! وهذا معنى يناقض أن سكان القرى لا يقال لهم «أعراب»، هذه الأولى، والثانية في هذا الشرح أن «أعراب يثرب» هؤلاء ينقسمون إلى قسمين قسم بادية (أعراب) وقسم حاضرة، وبهذا اختلت التعريفات كلها فأهل القرى لم يعودوا عربًا بل أصبحوا أعرابًا، والأعراب لم يعودوا بادية فقط، بل أصبحوا بادية وحاضرة كذلك.

إلا إن قال قائل: إن يثرب في البيت لا علاقة لها بما بعدها وتكون جملة «والأعراب باد وحاضر» خبر منقطع عن البيت، حينها ستكون هذه الجملة عبثية لا معنى لها في هذا السياق، ويصح استبدالها بأي جملة توافقها في الوزن والقافية، ولو قبلنا بهذا ـ وهو لا يقبل ولا يليق بشعر حسان ـ لبقيت مشكلة قسمي الأعراب.

فالأعراب في بيت حسان لا تصح إلا على معنى لفيف قبائل العرب وجماعاتها، كما بيناه.

وقد كرر ﵁ في شعره لفظة «أعراب» مرارًا، وهي لا تخرج عنده عن معنى جماعات العرب، وإذا تحرر قارئ شعره مما استقر في الأذهان من المعنى الحادث في المعاجم اللغوية لن يراها إلا كذلك.

ومن المواضع التي وردت فيها هذه اللفظة في شعره قوله يهجو قومًا:

وشر من يحضر الأمصار حاضرها
وشر بادية الأعراب باديها[(١)]

وقوله: «بادية الأعراب» أي بادية العرب، واستعمل الجمع إشارة إلى تعدد القبائل العربية.

ومثل ذلك قوله ﵁ في غزوة الأحزاب:

أَمُّوا بغزوهمُ الرسولَ وأَلَّبوا
أهل القرى وبواديَ الأعراب
جيشٌ عيينة وابن حربٍ فيهم
متخمطين بحلبة الأحزاب[(٢)]

فـ«بوادي الأعراب» تعني بوادي قبائل العرب وهو يعني هنا غطفان وأحلافها، واستعملها ﵁ في مقابل «أهل القرى»، ولو كانت «الأعراب» تعني سكان البادية فقط لاكتفى بها حسان، ولما كثر في كلام العرب إضافة «بادية» و«بوادي» إليها ـ كما في هذين البيتين وغيرهما ـ لأن التعبير بالأخيرتين بدون الإضافة كاف لإيصال المعنى فقول القائل: بادية فيه دلالة على أنه يعني سكان البادية، وإضافتها إلى «الأعراب» بهذا المعنى كأننا نقول: بادية سكان البادية، وهذا أقرب إلى اللغو.

وممن جاءت «الأعراب» في شعره ظاهرة الدلالة على عامة قبائل العرب حاضرة وبادية كعب بن مالك الأنصاري،

---

(١) ديوانه ٤٢٥.

(٢) ديوانه ١١.

وذلك في مهاجاته لشعراء قريش إذ يقول مدافعًا عن رسول الله ﷺ مفتخرًا بقومه من الأنصار:

وكتيبةٍ ينفي القران قتيرها
وترد حد قواحز النشاب
جأوى ململمةٍ كأن رماحها
في كل مجمعةٍ ضريمة غاب
يأوي إلى ظل اللواء كأنه
في صعدة الخطي فيء عقاب
أعيت أبا كربٍ وأعيت تبعًا
وأبت بسالتها على الأعراب(١)

فكعب يفخر بمقارعة الممالك وذلك بإشارته إلى الملكين «أبي كرب»، و«تبع»، ويفخر كذلك بمقارعة قبائل العرب «الأعراب»، وهو قطعًا لا يريد سكان البادية فقط، وإنما أراد جميع قبائل العرب من بادية وأهل قرى وإلا لم يكن لفخره معنى لا سيما أنه يرد بهذه القصيدة على قريش وهم أهل قرية.

وقد جاءت هذه اللفظة على لسان شاعر من ملوك كندة أهل حضرموت، وهم أهل قرى وليسوا سكان بادية، كما جاء في هذا الخبر: «ذكر أبو سعد النيسابوري من طريق مسلمة بن محارب عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس، قال: قدم ملوك حضرموت، فقدم وفد كندة فيهم

---

(١) **ديوان كعب بن مالك الأنصاري**، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ص ١٨١.

الأشعث بن قيس فذكر القصة، قال: وفي ذلك يقول الجفشيش، واسمه معدان بن الأسود الكندي:

جاءت بنا العيس من أعراب ذي يمنٍ
تغور غورًا بنا من بعد إنجاد
حتى أنخنا بجنب الهضب من ملأٍ
إلى الرسول الأمين الصادق الهادي»(١)

فهذا الكندي المعدود من الملوك القادم من حضرموت ـ وهي قرى عامرة ـ يقول إنه قادم من «أعراب ذي يمن» ويقصد القبائل العربية في اليمن، ولا يعني بذلك سكان البادية منهم خاصة؛ لأنه يعلم كما يعلم غيره أنه ليس من أهل البادية.

فهؤلاء الثلاثة مخضرمون وكلهم عرب أقحاح من أهل القرى، و«الأعراب» في استعمالهم لا تعني سكان البادية خاصة، وإنما يعنون بها جماعات المنتسبين إلى قبائل العرب من قرويين وبوادٍ.

وإذا نظرنا لاستعمالها عند المخضرمين من شعراء البوادي وجدناه الاستعمال نفسه، فليس لهذه اللفظة عندهم أي مدلول يجعل قرويًّا أو بدويًّا يأنف من أن يوصف بها لأنها لا تعني إلا ما أسلفنا، فهذا تميم بن أبي العامري ـ وهو بدوي قح ـ يفخر بقومه مستعملًا هذه اللفظة غير مثقلة بالمعاني التي أشارت إليها معاجم اللغة:

---

(١) **الإصابة في تمييز الصحابة** لابن حجر العسقلاني، ت عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ١: ٥٩٧.

نحن المقيمون لم تبرح ظعائننا
لا نستجير ومن يحلل بنا يجر
منا ببادية الأعراب كركرةٌ
إلى كراكر بالأمصار والحضر[١]

وهذان البيتان من قصيدة قالها الشاعر بعد الإسلام بزمن، وهو يفخر بقومه الذين ببادية الأعراب أي بادية العرب وموطن قبائلها، وكذلك بقومه الذين أقاموا في الأمصار الإسلامية في العراق والشام.

وإن صح لنا الاستقراء فجملة ما وجدناه من شعر العرب الجاهليين والمخضرمين لا يخرج بهذه اللفظة عن معنى جماعات العرب.

وهذا المعنى هو ما أشار إليه النضر بن شميل فيما سبق نقله من أن الأعراب عرب تجمعت من ههنا وههنا، وهو ما أكده الوزير المغربي فيما قرره من معنى أعراب وكيف استعملها الشعراء فهو يقول: «والأعراب جمع العرب. كالأعزاب جمع العزب، ولكن الشعراء استعملته بعد ذلك على اللفيف وسواد القبائل»[٢].

ومثل «الأعراب» في المعنى والاستعمال «أعارب» التي جاءت على ألسنة الفصحاء، وممن جاءت في بعض شعره

(١) **ديوان ابن مقبل**، اعتنى بتحقيقه د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ص ٧٨.

(٢) **أدب الخواص** للوزير المغربي، أعده للنشر حمد الجاسر ١١٥.

بمعنى عموم العرب الصحابي الأمير عياض بن غنم القرشي رضي الله عنه:

ونـنـصـر ديـن الله فـي كـل مـشـهـد
بـفـتـيـان صـدق مـن كـرام الأعـارب[١]

ومثلها وبمعناها «عربان» التي جاءت على لسان زياد بن أبي سفيان، قال الواقدي متحدثًا عن بعض المعارك: «وحمل من بعده زياد بن أبي سفيان وهو ينشد ويقول:

أنـا زيـاد بـن أبـي سـفـيـان
جـدي يـرى مـن أشـرف الـعـربـان
كـذا ابـن عـمـي أحـمـد الـعـدنـانـي
مـعـي حـسـام ثـم رمـح ثـانـي
أطـعـن كـل كـافـر جـبـان
وكـل قـلـب نـاقـص الإيـمـان

قال الراوي: ثم غاص في وسط القوم فقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة وغاص في القلب فولت الروم من بين يديه منهزمين وهو يضرب السيف فيهم طولًا وعرضًا»[٢].

وعلى ما قدمناه فلفظة «العرب» منذ عرفت في العصور القديمة فهي لفظة تطلق في أصلها على القبائل البدوية، ولما استقر جزء من هذه القبائل أصبح من الضرورة التمييز

---

(١) انظر **فتوح الشام** لمحمد بن عمر الواقدي ٢:١٢٨.

(٢) نفسه ٢:٢١٧.

بين حالي البوادي والمستقرين فاستعمل العرب لأنفسهم لفظتي بادية وحاضرة، أما ورثة أراضي الشعوب القديمة في خارج الجزيرة فبقيت تستعمل الأصل القديم نعتًا للبادية فتطلق «العرب» للبادية خاصة.

أما «الأعراب» فهي جمع «العرب» بلا مراء واستعمال العرب لها في الجاهلية وأوائل الإسلام يدل على ذلك، ثم استعمالها عند كثير من العلماء والشعراء والأدباء على مر العصور الإسلامية، ويضاف إلى ذلك تصريح وتأكيد عدد من ثقات العلماء بذلك، واستدلالهم عليه بكلام العرب.

ومن المؤلم أن الشافعي وهو من العلماء الفصحاء الذين يحتج بلغتهم قد استعملها استعمالًا واضحًا بمعنى العرب فجاء من المحققين من ظن هذا اللفظ محرفًا عن«عرب» فعدله مجتهدًا، ولكنه مشكورًا أشار في الهامش إلى تعديله، فقد جاء في أحكام القرآن للشافعي الذي جمعه البيهقي وحققه عبد الغني عبد الخالق ما نصه: «والفرض في أهل الكتاب، ومن دان قبل نزول القرآن كله دينهم: أن يقاتلوا حتى يعطوا الجزية، أو يسلموا. وسواءٌ كانوا عربًا، أو عجمًا» ثم قال في الهامش تعليقًا على «عربًا» «وفي الأصل (أعرابًا) ولعله محرف»[١].

والذي يجعلنا نجزم بأنها ليست تحريفًا وأن الشافعي رحمه الله قصدها، أولًا: أنه رحمه الله كان فصيحًا وممن يحتج بلغته عند

(١) **أحكام القرآن** للشافعي جمع البيهقي تحقيق عبد الغني عبد الخالق ٢:٥٣.

كثير من أهل العلم، والثانية: أن هذا الاستعمال منقول عنه في غير هذا الكتاب فقد جاء في شرح مشكاة المصابيح: «وقال أبو حنيفة: تؤخذ الجزية من جميع الكفار إلا من مشركي العرب ومجوسهم، وقال الشافعي: لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس أعرابًا كانوا أو أعاجم»[١].

هذا مثال على التغيير الناتج عن شيوع القول بالتباين الكلي بين لفظتي «عرب» و«أعراب»، مع أنه قول لا يستند إلى شيء من كلام العرب قبل الإسلام، ولولا أمانة المحقق وإشارته إلى ما في الأصل لربما لحق هذا التغيير والتعديل بتعديلات كثيرة لم يشر إليها المعدلون.

لكن السؤال: هل طرأ على لفظة «الأعراب» في الإسلام تخصيص في بعض استعمالاتها لتدل على معنى آخر أخص من «العرب» سواء كان هذا المعنى «البوادي» أو غيرها؟، وهل ضاق معناها مثلما اتسع معنى لفظة «عرب» التي أصبحت تشمل حاضرة القبائل العربية وباديتها؟

(١) **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح** للملا القاري، دار الفكر ٦: ٢٥٢٩ وكذلك في **تحفة الأحوذي** للمباركفوري، العلمية ٥: ١٧٦.

«الأعراب»
في الأحاديث النبوية الشريفة

إن من أهم المداخل لمعرفة المعنى الدقيق لهذه اللفظة النظر في السياقات التي جاءت فيها، واستظهار معناها في كل سياق، ولأنها تكررت كثيرًا في الأحاديث النبوية وفي الآثار عن الصحابة الكرام فسوف نستعرض منها ما نعتقد أنه سيكشف لنا المراد ويوصلنا إلى الغاية، أو في أضعف الأحوال يفتح لنا نافذة نبصر من خلالها الطريق الموصلة إلى المقصد.

وسنعمل النظر في النصوص من جوانب متعددة لتصح لنا الرؤية، لعلنا نحيط بالمشهد أو نقارب، وأولى عتبات الصعود إلى هذا المرتقى أن نجيب عن هذه الأسئلة: هل ورد إطلاق «الأعراب» على البادية صراحة؟ وهل هذا الإطلاق يشمل جميع البادية أم يختص بعضًا منهم؟ ثم ننظر هل أطلق لفظ «الأعراب» على أهل القرى؟

لقد شاع في مؤلفات الإسلاميين قديمًا وحديثًا الاستعمال الترادفي بين لفظتي «أعراب» و«بادية» مما جعل الكثير من العلماء يستعمل «أعراب» مكان «بادية» و«أعرابي»

مكان «بدوي» من منطلق هذا الترادف الذهني للفظتين، وربما تسلل هذا الأمر إلى كبار الأئمة من رواة الأحاديث النبوية الشريفة، ومن أظهر الأمثلة على ذلك ما سنراه في الحديث الصحيح الذي لا يكاد يغيب عن ديوان من دواوين السنة وهو حديث «لا يبيع حاضر لباد» فلو نظرنا إلى هذا الحديث المجمع على صحته لوجدنا عبارة «حاضر لباد» رويت حينًا بالمعنى فجاءت «مهاجر لأعرابي» على اعتبار الترادف بينهما، وليتضح ذلك سنعرض ما وجدناه من روايات هذه العبارة التي سيظهر من خلالها أن بعض الرواة قد رواها بالمعنى وليس بلفظ الصحابي المروي عن رسول الله ﷺ.

جاءت هذه العبارة ـ فيما وجدنا ـ في أحاديث عن ثلاثة عشر صحابيًّا عن رسول الله ﷺ ثلاثة منهم جاءت أحاديثهم في الصحيحين وهم عبد الله بن عباس[(١)] وأنس بن مالك[(٢)]، وأبو هريرة[(٣)]، ورابع في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر[(٤)]، وخامس في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله[(٥)]، وهي أحاديث مروية عنهم رضوان الله عليهم

(١) **صحيح البخاري**، الطبعة السلطانية ٣: ٧٢ حديث (٢١٥٨) **وصحيح مسلم**، ت محمد فؤاد عبد الباقي ٣: ١١٥٧ حديث (١٥٢١).

(٢) **صحيح البخاري** ٣: ٧٢ حديث (٢١٦١) **وصحيح مسلم** ٣: ١١٥٨ حديث (١٥٢٣).

(٣) سنتحدث بالتفصيل عن رواية أبي هريرة لاحقًا.

(٤) **صحيح البخاري** ٣: ٧٢ حديث (٢١٥٩).

(٥) **صحيح مسلم** ٣: ١١٥٧ حديث (١٥٢٢).

أجمعين في كثير من كتب السنة[١]، أما في غير الصحيحين فقد جاء عن أبي سعيد الخدري[٢]، وعبد الله بن مسعود[٣]، وطلحة بن عبيد الله[٤]، وسمرة بن جندب[٥]، وعمرو بن

---

(١) حديث ابن عباس في سنن أبي داود وسنن النسائي وسنن ابن ماجه ومصنف عبدالرزاق ومسند أحمد ومسند البزار ومستخرج أبي عوانة والمعجم الكبير للطبراني والسنن الصغير للبيهقي والسنن الكبرى للبيهقي ومسند إسحاق بن راهويه، أما حديث أنس ففي سنن النسائي وسنن أبي داود ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة ومسند البزار ومسند أبي يعلى الموصلي ومستخرج أبي عوانة وشرح معاني الآثار للطحاوي والكنى والأسماء للدولابي، أما حديث عبد الله بن عمر ففي مسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة ومسند الشافعي ومسند البزار وسنن الدارقطني والمخلصيات ومجموع فيه مصنفات أبي جعفر ابن البختري، أما حديث جابر بن عبد الله ففي سنن الترمذي ومسند أحمد وسنن أبي داود وسنن ابن ماجه ومسند أبي داود الطيالسي ومسند الشافعي ومسند الحميدي ومسند ابن الجعد ومصنف ابن أبي شيبة ومسند أبي يعلى الموصلي والمنتقى لابن الجارود ومستخرج أبي عوانة وصحيح ابن حبان والسنن الكبرى للبيهقي ومعرفة السنن والآثار للبيهقي وشرح السنة للبغوي.

(٢) **شرح معاني الآثار** للطحاوي، ت محمد وهري النجار ومحمد سيد جاد الحق ١٠ : ٤٤ حديث (٥٥١٣)، وصحيح ابن حبان ١١ : ٣٤١ حديث (٤٩٧٦) وقال محقق الكتاب الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

(٣) **مستخرج أبي عوانة** ٣ : ٢٦٤ حديث (٤٩١٠).

(٤) **سنن أبي داود** ٣ : ٢٧٠ حديث (٣٤٤١) وقال الألباني إسناده ضعيف، ومسند البزار ٣ : ١٦٩ حديث (٩٥٦) ومسند أبي يعلى الموصلي ٢ : ١٥ حديث (٦٤٣) و٢ : ١٦ حديث (٦٤٤) وقال المحقق حسين سليم أسد: رجاله ثقات، والمسند الشاشي ١ : ٨١ حديث (٢١) **والسنن الكبرى**، للبيهقي ٦ : ٦٨٨ حديث (١٠٩١١) **ومسند أحمد** ٣ : ٢٢ حديث (١٤٠٤) وقال محققه شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٥) **مسند أحمد** ٣٣ : ٣٠٧ حدبث (٢٠١١٩) وقال شعيب الأرناؤوط: «صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف، مطر ـ وهو ابن طهمان الوراق ـ حسن الحديث في المتابعات والشواهد، والحسن ـ وهو البصري ـ لم يصرح بسماعه من سمرة».
وهو عن مطر عن الحسن في مسند البزار ١٠ : ٤٤١ حديث (٤٥٩٦) وفي **المعجم الكبير** للطبراني ٧ : ٢٢٣ حديث (٦٩٣٠) وفي معجم أبي يعلى الموصلي =

عوف المزني[1] جد كثير بن عبد الله، وأبي يزيد والد حكيم بن أبي يزيد[2]، وجد زامل بن عمرو السكسكي[3]، ورجل من أصحاب النبي ﷺ[4]، هذا ما وجدته في كتب السنة.

وفي كل هذه الأحاديث المروية عن الصحابة بطرق كثيرة جدًا جلها صحيح، وقليل منها مختلف في صحته رويت عبارة «حاضر لباد»، ثم وجدت في بعض الطرق «مهاجر لأعرابي» مكان الرواية الأولى، ولم أجدها في الصحيحين عدا رواية واحدة في إحدى الطرق عن أحد الرواة عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد جاءت في غير الصحيحين في إحدى الروايات عن الحسن عن سمرة وهي رواية في سندها مقال للعلماء، مع مخالفتها للرواية الأخرى عن الحسن عن سمرة رضي الله عنه[5]، وجاءت أيضًا عن ابن عمر في حديث

= ١٧٦ حديث (٢٠٢)، وقد ورد الحديث بطريق آخر عن الحسن وفيه «المهاجر الأعرابي».

(١) **مسند البزار** ٨: ٣٢٣ حديث (٣٣٩٨) **والمعجم الكبير** للطبراني ١٧: ١٧ حديث (١٥) **وسنن الدارقطني** ٤: ٤٧ حديث (٣٠٧٥) و٥: ٥٤٩ حديث (٤٨٣٢).

(٢) **المعجم الكبير للطبراني** ٢٢: ٣٥٥ حديث (٨٩١).

(٣) **المعجم الكبير للطبراني** ٢٢: ٣٨٢ حديث (٩٥٢).

(٤) **مسند أحمد** ٣١: ١١٧ حديث (١٨٨١٩) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله إلى صحابيه ثقات رجال الشيخين. **ومسند الحارث** لابن أبي أسامة ١: ٤٩٣ حديث (٤٢٨) **والسنن الكبرى** للبيهقي ٥: ٥٢١ حديث (١٠٧٢٦).

(٥) **المعجم الكبير** للطبراني ٧: ٢٠٩ حديث (٦٨٦٩) وهي عن الحسن من طريق قتادة وفي سندها صدقة بن عبد الله السمين وهو ضعيف عند أكثر أهل الحديث قال عنه يحيى بن معين: ضعيف وقال عنه الإمام أحمد: ليس بشيء، =

ضعف أهل الحديث إسناده[١] مداره على عبد الواحد بن زياد عن صدقة بن سعيد الحنفي عن جميع بن عمير عن ابن عمر، وقد جاء في المراجع التي أوردت الحديث بطوله مرة «مهاجر لأعرابي»[٢]، ومرة «حاضر لباد»[٣].

وعلى أن غرضي من ذكر تضعيف العلماء للحديث هو التأكيد على عدم ثبوت عبارة «مهاجر لأعرابي» وأنها ليست إلا رواية بالمعنى لقوله ﷺ «حاضر لباد» والتي أكاد أجزم أنها ليست من المترادفات في لغته صلوات ربي وسلامه عليه، ولا لغة أصحابه، فلكل واحدة منهما معنى مختلف كما سيظهر معنا بإذن الله في هذه الدراسة.

ونعود للكلام عن الحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو مروي عن أربعة من التابعين، فرواه البخاري عن سعيد بن المسيب بثلاث طرق

= ضعيف الحديث، أحاديثه مناكير ليس يسوى حديثه شيئا، وقال: ضعيف جدًا، وقال عنه مسلم: منكر الحديث، وقال عنه أبو حاتم ابن حبان: كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات لا يشتغل بحديثه إلا عند التعجب. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء طبعة دار الحديث ٧: ١٨.

(١) قال الحافظ في **الفتح** ٤: ٣٦٤ «وأما ما أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر بلفظ إن ردها رد معها مثل أو مثلي لبنها قمحًا ففي إسناده ضعفٌ» وقد ضعفه الألباني كذلك في **سنن أبي داود ٣: ٢٧١** حديث (٣٤٤٦) **وسنن ابن ماجه ٢: ٧٥٣** حديث (٢٢٤٠). وجميع ابن عمير ممن تكلم فيهم أهل الحديث والكلام عنه مفصل في مظانه من التراجم، وفي هذين الموضعين اقتصر على أول الحديث ولم ترد عبارة «ولا يبيع...».

(٢) **المعجم الكبير** للطبراني ج ١٣، ١٤ (١٣: ١٩٩) حديث (١٣٩١٢) ودلائل النبوة للبيهقي ٦: ٢٣٩.

(٣) **مجموع فيه مصنفات أبي جعفر ابن البختري ٢٢٩** حديث (٢١٨).

عن الزهري عنه عن أبي هريرة، الأول عن طريق سفيان بن عيينة[١]، والثاني عن طريق ابن جريج[٢]، والثالث عن طريق معمر[٣]، ورواه كذلك من حديث الأعرج عن أبي هريرة،[٤] ورواه من حديث سعيد بن أبي سعيد عنه[٥]، ورواه عن طريق شعبة عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عنه[٦].

ورواه مسلم عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة بطريقين الأول عن سفيان عن الزهري[٧]، والثاني عن يونس عن الزهري[٨]، ورواه كذلك عن الأعرج[٩]، ورواه عن طريق شعبة عن عدي بن ثابت عن أبي حازم[١٠].

فجميع الروايات المروية في الصحيحين عن أبي هريرة متفقة على عبارة «حاضر لباد»، وهي توافق الروايات عن ابن عباس وابن عمر وأنس وجابر التي في الصحيحين، ولم ترد «المهاجر للأعرابي» إلا في رواية واحدة عن أبي هريرة

---

(١) **صحيح البخاري** ٣: ٦٩ حديث (٢١٤٠).

(٢) نفسه ٣: ٧٢ حديث (٢١٦٠).

(٣) نفسه ٣: ١٩١ حديث (٢٧٢٣).

(٤) نفسه ٣: ٧١ حديث (٢١٥٠).

(٥) **صحيح البخاري** ٣: ٧٢ حديث (٢١٦٢).

(٦) نفسه ٣: ١٩٢ حديث (٢٧٢٧) وهي الرواية الوحيدة التي جاءت فيها «المهاجر للأعرابي» خلافًا لرواية مسلم عن شعبة.

(٧) **صحيح مسلم** ٢: ١٠٣٣ حديث ٥١ ـ (١٤١٣).

(٨) نفسه ٢: ١٠٣٣ حديث ٥٢ ـ (١٤١٣).

(٩) نفسه ٣: ١١٥٥ حديث ١١ ـ (١٥١٥).

(١٠) نفسه ٣: ١١٥٥ حديث ١٢ ـ (١٥١٥).

عند البخاري من طريق شعبة عن عدي بن ثابت عن أبي حازم تخالفها رواية أخرى عن شعبة أيضًا في صحيح مسلم ورد فيها «حاضر لباد» موافقة للمروي عن أبي هريرة عن غير أبي حازم موافقة كذلك المروي عن الصحابة الآخرين.

فقد جاء في صحيح البخاري: «حدثنا محمد بن عرعرة، حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابتٍ، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «نهى رسول الله ﷺ عن التلقي، وأن يبتاع المهاجر للأعرابي، وأن تشترط المرأة طلاق أختها، وأن يستام الرجل على سوم أخيه، ونهى عن النجش، وعن التصرية» تابعه معاذٌ، وعبد الصمد، عن شعبة، وقال غندرٌ، وعبد الرحمن: نهي، وقال آدم: نهينا، وقال النضر، وحجاج بن منهالٍ: نهى»[1].

أما في صحيح مسلم: «حدثنا عبيد الله بن معاذٍ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن عديٍ وهو ابن ثابتٍ، عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرة، «أن رسولَ الله ﷺ نهى عن التلقي للركبان، وأن يبيع حاضرٌ لبادٍ، وأن تسأل المرأة طلاق أختها، وعن النجش والتصرية، وأن يستام الرجل على سوم أخيه»[2].

والعبارة في رواية معاذ بن معاذ العنبري عن شعبة هنا توافق ما جاء عن ثلاثة عشر صحابيًّا في الأحاديث الثابتة الصحيحة عنهم والتي منها ما أشرنا إليه من

(١) **صحيح البخاري** ٣: ١٩٢ حديث (٢٧٢٧).

(٢) **صحيح مسلم** ٣: ١١٥٥ حديث ١٢ ـ (١٥١٥).

أحاديث الصحيحين التي منها الروايات المتعددة عن أبي هريرة خاصة.

والذي يظهر لي أن العبارة إنما اختلفت عن شعبة، فقد جاءت الرواية عن عدي بن ثابت عن طريق زيد ابن أبي أنيسة بعبارة «حاضر لباد»(١) مما يشير أن التغيير إنما حدث في الروايات عن شعبة.

وإذا تتبعنا روايات هذا الحديث عن شعبة رأيناه مرويًّا عن عشرة من أصحابه، وعباراتهم مختلفة، فقد رواها أبو داود الطيالسي(٢) «مهاجر لأعرابي» ومثله حجاج بن منهال(٣)، ومثلهما محمد بن جعفر(٤)، وحفص بن عمر(٥)، ورواها أبو النضر «المهاجر لأعرابي»(٦)، ورواها يحيى بن أبي بكير «يبيع المهاجر الأعرابي»(٧)، ورواها عبد الرحمن بن زياد «المهاجر للأعرابي»(٨)، ورواها أبو الوليد الطيالسي «حاضر المهاجر للأعرابي»(٩)، أما محمد بن عرعرة ومعاذ بن معاذ العنبري فقد ذكرنا روايتيهما.

---

(١) **مستخرج أبي عوانة ٣: ٢٧٥** حديث (٤٩٥٠).

(٢) **مسند الطيالسي ٤: ٢٥٥**.

(٣) **سنن النسائي ٧: ٢٥٥ والسنن الكبرى** للبيهقي ٥: ٥١٧.

(٤) **مسند البزار ١٧: ١٤٣٧**.

(٥) **السنن الكبرى** للبيهقي ٥: ٥١٧.

(٦) **مستخرج أبي عوانة ٣: ٢٦١**.

(٧) نفسه والصفحة نفسها.

(٨) **شرح معاني الآثار** للطحاوي ٤: ١١.

(٩) **صحيح ابن حبان ١١: ٣٣٦** وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

ونلحظ هنا أن عبارة «مهاجر لأعرابي» بكل صيغها إنما شاعت في كتب السنة عن أصحاب شعبة فتسعة من الرواة العشرة عن شعبة لا يروون «حاضر لباد» التي جاءت في كل الروايات الصحيحة عن أبي هريرة وعن باقي الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

وعلى أن أثر المعنى ليس مما يعنيني في هذا البحث بالقدر الذي يعنيني ثبوت العبارة عن أبي هريرة، والتأكيد على أنها رواية معنى لا رواية لفظه ﵁، إلا أنه استوقفني كلام الشراح حول هذه الرواية، فهم متفقون على أن «أعرابي» تعني «بدوي»، إلا أنهم اختلفوا في «مهاجر»، فمن العلماء من صرفها عن معناها الدائر في كلام الرسول ﷺ، وهو المعنى الوحيد في القرآن والسنة الذي يقصد به فئة مخصوصة آمنوا بالرسالة وصدقوا الرسول ﷺ وانتقلوا من مكة إلى المدينة تاركين وراءهم كل شيء منقطعين لصحبته، فحمل هذه اللفظة على معنى لغوي متأخر تذكره معاجم اللغة[١]؛ لتتوافق هذه الرواية مع رواية «حاضر لباد» بشطريها، قال الحافظ ابن حجر: «وقوله في هذا المتن وأن يبتاع المهاجر للأعرابي المراد بالمهاجر الحضري وأطلق عليه ذلك على عرف ذلك الزمان والمعنى أن الأعرابي إذا جاء السوق ليبتاع شيئًا لا يتوكل له الحاضر

(١) لم أجد في كلام العرب قبل الإسلام ولا في زمن الرسول ﷺ ما يشير إلى المعنى اللغوي الذي تذكره المعاجم، ولا أراه إلا معنى ظهر متزامنًا مع انصراف معنى «أعرابي» من معناه الأصلي إلى معنى «بدوي» فاللفظان كما سنرى في هذا البحث تغيرت دلالتهما عما كانا عليه في حياة الرسول ﷺ.

لئلا يحرم أهل السوق نفعًا ورفقًا وإنما له أن ينصحه ويشير عليه ويحتمل أن يكون المراد بقوله أن يبتاع أن يبيع فيوافق الرواية الماضية»[١].

ونجد من العلماء من أجرى المعنى على ما عهد في لسان الشرع من أن المقصود بـ«المهاجر» المعنى الشرعي المشهور الذي لم يكن يعرف في عهد الرسول غيره، وسيترتب على هذا اختلاف المعنى عن الرواية الأخرى وثمة اختلاف الحكم، ولكنه حاول أن يبحث لذلك عن تعليل مقبول احتسابًا للسؤال المفترض: لماذا يخصص الرسول ﷺ المهاجرين دون غيرهم؟ فقال: «وأن يبيع مهاجر المراد أن يبيع حاضر لباد لكن خص المهاجر نظرًا إلى ذلك الوقت وذلك لأن الأنصار كانوا يومئذٍ أهل زرع والمهاجرين كانوا أهل تجارة كما روى عن أبي هريرة والله تعالى أعلم»[٢].

والحق أن هذه الرواية التي جعلت العلماء يبحثون لها عن تعليلات لتوافق الرواية الصريحة الواضحة ليست إلا رواية بالمعنى العرفي لزمن متأخر عن عهده صلوات ربي وسلامه عليه، ومعناها في عصره وفي لسان الشرع مختلف عن هذا المعنى المتأخر؛ لذلك أوقعت الشراح في الاختلاف والبحث عن تعليلات لغوية حينًا وافتراضية حينًا آخر.

---

(١) **فتح الباري** لابن حجر، تصحيح محب الدين الخطيب وتعليقات الشيخ عبد العزيز بن باز ٥: ٣٢٥.

(٢) **حاشية السندي على سنن النسائي**، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ٧: ٧٥٥.

إن هذه العبارات المروية عن شعبة ليست مرادفة من أي وجه لعبارة «حاضر لباد»، بل إن بعضها يختلف عن بعض، فرواية ابن حبان «حاضر المهاجر للأعرابي» تختلف عن «مهاجر لأعرابي» وسيظهر هذا لنا واضحًا جليًا إذا اتضح معنى «أعرابي» بإذن الله.

وتجدر الإشارة إلى أنه جاء في كلام للحافظ ابن حجر عبارة مختلفة عن كل ما تقدم أسندها إلى محمد بن جعفر (غندر) عن طريق شعبة أيضًا، قال الحافظ: «وأما حديث غندر فقرأته على عبد الرحمن بن أحمد بن المبارك أخبركم أبوالحسن علي بن قريش أنا أبو الفرج بن الصيقل أنا مسعود ابن أبي منصور في كتابه أنا الحسن بن أحمد الحداد أنا أبو نعيم ثنا أبو محمد بن حيان ثنا محمد بن يحيى ثنا عمرو بن علّي وبندار عن محمد بن جعفر هو غندر عن شعبة عن عدي بن ثابتٍ عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نهى عن التلقي وأن يبيع حاضر لأعرابي الحديث»[١].

وهذه الرواية «حاضر لأعرابي» إن كانت ثابتة عن محمد بن جعفر (غندر) ولم تكن رواية بالمعنى من الحافظ فهي تخالف اللفظ المروي عن غندر في مسند البزار الذي سبقت الإشارة إليه، ويكون الاختلاف قد جاء عن شعبة وعن أخص أصحابه به وهو غندر رحمهما الله.

على أن هذه الرواية تختلف كذلك عن كل الروايات؛

---

(١) **تغليق التعليق على صحيح البخاري** لابن حجر العسقلاني، ت سعيد عبد الرحمن موسى القزقي ٣: ٤١٠.

لأن الروايات السابقة تحمل معاني معروفة في عصره ﷺ وإن اختلفت فيما بينها، أما هذه الرواية فلا يمكن حملها على أي معنى معروف في لغة من نسب له القول صلوات الله وسلامه عليه.

لقد ضربنا بهذا الحديث المثل لنرى أن الاستعمال الترادفي بين «الأعرابي» و«البدوي» شاع شيوعًا كبيرًا جدًا حتى دخل على المحدثين وهم أحرص الناس على نقل الكلام كما نطق به قائله، فما وقع فيه المحدثون يجعل من هو دونهم أحرى وأجدر أن يقع في أكبر منه وأكثر، وعليه فلا نستغرب ولا نستنكر الخلط الكبير الذي نراه في الكتب ثم في كلام المتعلمين اليوم من استعمال اللفظتين بمعنى واحد وحرصهم الكبير في الكلام «الرسمي» على أن يستعملوا «أعراب» أكثر من «بدو» اعتقادًا منهم أنها اللغة الأكمل والأقرب إلى لغة العلم والثقافة تأثرًا من بعضهم بتكرر ورودها في القرآن الكريم وانصراف الأذهان إلى ما قرره أهل اللغة ونقله عنهم المفسرون من أنها لا تعني إلا البدو.

بين «الأعرابي» و«البدوي» في لغة عصر الرسالة

جاء في الحديث الصحيح: «قال أيوب بن سليمان: حدثني أبو بكر بن أبي أويسٍ، عن سليمان بن بلالٍ، قال يحيى بن سعيدٍ: سمعت أنس بن مالكٍ، قال: أتى رجلٌ أعرابيٌ من أهل البدو إلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فقال: يا رسول الله، هلكت الماشية، هلك العيال هلك الناس، فرفع رسول الله ﷺ يديه، يدعو، ورفع الناس أيديهم معه يدعون، قال: فما خرجنا من المسجد حتى مطرنا، فما زلنا نمطر حتى كانت الجمعة الأخرى، فأتى الرجل إلى نبي الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، بشق المسافر ومنع الطريق»[١].

وفي صريح كلام أنس رضي الله عنه في هذا الحديث أن الأعراب يكونون من أهل البدو، إلا أنه يفهم منه أيضًا أن الأعراب يكونون من غير أهل البدو كذلك، فقول أنس رضي الله عنه: «أعرابي من أهل البدو» ينم عن احترازه من أن

(١) **صحيح البخاري**، باب رفع الناس أيديهم مع الإمام في الاستسقاء ٢: ٣١.

تذهب الأوهام ببعض السامعين إلى أعرابي آخر من غير البدو، ولو كانت لفظة «الأعراب» مرادفة لـ«البدو» لاكتفى ﵁ بقول «أتى أعرابي» إذ أن «الأعرابي» لا تعني إلا «البدوي»، ولكن كلامه دل على أن الأعراب يكونون في غير أهل البدو كما يكونون في البدو.

وجاء في أحاديث أخرى ما يدل على أن «الأعراب» لا تطلق على كل البادية فقد جاء في مسند أحمد ومستدرك الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وفي غيرهما من حديث عائشة ﵂: «حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا المفضل، قال: حدثني يحيى بن أيوب، عن عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي، عن عبد الله بن نيارٍ الأسلمي، عن عروة، عن عائشة، أنها قالت: أهدت أم سنبلة لرسول الله ﷺ لبنًا، فلم تجده، فقالت لها: إن رسول الله ﷺ قد نهى أن نأكل طعام الأعراب، فدخل رسول الله ﷺ وأبو بكرٍ، فقال: ما هذا معك يا أم سنبلة؟ قالت: لبنٌ أهديت لك يا رسول الله، قال: اسكبي أم سنبلة فسكبت، فقال: ناولي أبا بكرٍ ففعلت، فقال: اسكبي أم سنبلة، فناولي عائشة فناولتها، فشربت، ثم قال: اسكبي أم سنبلة فسكبت، فناولت رسول الله ﷺ فشرب، قالت عائشة، ورسول الله ﷺ يشرب من لبن أسلم، : وأبردها على الكبد، يا رسول الله، قد كنت حدثت أنك قد نهيت عن طعام الأعراب؟ فقال: يا عائشة، إنهم ليسوا بالأعراب، هم أهل

باديتنا، ونحن أهل حاضرتهم، وإذا دعوا أجابوا، فليسوا بالأعراب»[١].

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يصف أسلم بالبداوة وينفي عنهم الأعرابية، فالأعرابية إذن ينبغي أن تكون شيئًا آخر غير البداوة، أو أنها ليست مرادفة لها على الأقل، فعلة نفي الأعرابية عن أسلم عند حبيبنا ﷺ لا علاقة لها بسكنى البادية ولا سكنى القرى، فهي أمر آخر بالكلية ومتعلقه بإجابة الدعوة إلى القتال والجهاد، ونصرة الرسول ﷺ كما جاء في روايات أخرى.

وفي حديث سلمة بن الأكوع مع الحجاج ما يدل على أن الأعرابية شيء غير البداوة أيضًا، فقد جاء في الصحيح: «حدثنا قتيبة بن سعيدٍ، حدثنا حاتمٌ، عن يزيد بن أبي عبيدٍ، عن سلمة بن الأكوع: أنه دخل على الحجاج فقال: يا ابن الأكوع، ارتددت على عقبيك، تعربت؟ قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو» وعن يزيد بن أبي عبيدٍ، قال: «لما قتل عثمان بن عفان، خرج سلمة بن الأكوع إلى الربذة، وتزوج هناك امرأةً، وولدت له أولادًا، فلم يزل بها، حتى قبل أن يموت بليالٍ، فنزل المدينة»[٢].

---

(١) **مسند أحمد** ت شعيب الأرناؤوط، ط مؤسسة الرسالة ٤١: ٤٦٧١ حديث رقم (٢٥٠١٠) والحديث مروي في كثير من كتب السنة وانظر تعليق شعيب الأرناؤوط هناك، **والمستدرك على الصحيحين** للحاكم النيسابوري، ط العلمية ٤: ١٤٢ حديث (٧١٦٨).

(٢) **صحيح البخاري** ٩: ٥٢ حديث (٧٠٨٧) **وصحيح مسلم** ٣: ١٤٨٦ حديث ٨٢ ـ (١٨٦٢) وجاء في العديد من كتب السنة.

فسلمة ﷺ يفرق بين التعرب والبداوة، فبالرغم من أنه يعيش في البادية إلا أنه ينفي عن نفسه التعرب؛ لأنه يعلم أن ليس كل بداوة تعربًا.

فالتعرب والبداوة شيئان مختلفان فلا تلازم بين الأعرابية والبداوة في كلام رسول الله ﷺ ولا كلام صاحبيه ﷺ، فقد يكون الأعرابي بدويًّا وقد لا يكون.

وهذا الفهم لمعنى التعرب ظاهر في سلوك غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهم، وظاهر كذلك في أقوالهم إذا وضعت في سياق ذهني سليم للتلقي، وسترد معنا بعض النصوص والأخبار التي تزيد الأمر وضوحًا.

المضادة
بين «المهاجر» و«الأعرابي»

إنَّ ما شاع عند كتاب المسلمين من حصر «الأعراب» على البادية يجعل الأنظار تتجاوز كثيرًا من النصوص والآثار، فلا تستوقف باحثًا ولا دارسًا فضلًا عن القارئ العابر؛ لأن مسألة الترادف بين الأعرابي والبدوي أصبحت من المسلمات التي لا يكلف أحد نفسه النظر فيها؛ ولذلك فإننا سنحتاج في هذا المبحث إلى مزيد شرح وإيضاح.

لقد رأينا فيما سبق أن «الأعرابي» في كلام الرسول ﷺ لا تعني البدوي بالضرورة، فقبيلة كاملة من أهل البادية ينفي عنها الرسول الكريم صفة الأعرابية! وهذا يجعلنا نتساءل: إذا كان الأعرابي ليس البدوي، فمن هو إذن؟ وهل ورد في الأحاديث أو الآثار أو الأخبار أو الأشعار أن وُصِف بالأعرابية أحد من أهل القرى؟

جاء في معجم اللسان في مادة (عرب) قول ابن منظور: «وفي الحديث: تمثل في خطبته مهاجرٌ ليس بأعرابي، جعل المهاجر ضد الأعرابي»[1]، وقوله: «وفي الحديث» يوهم

(١) **لسان العرب** لابن منظور الأفريقي، تحقيق اليازجي وجماعة من اللغويين ١:٥٨٧.

أن المقصود حديث رسول الله ﷺ، وقد نقله الزبيدي في تاج العروس على أنه حديث[١]، وصرح الملا القاري في شرحه لمشكاة المصابيح أنه من كلام رسول الله ﷺ ناقلًا ذلك عن الطيبي مستدلًا به على أن الرسول ﷺ يفرق بين العربي والأعرابي، فقال: «وهذا الوجه أظهر لأنه عليه الصلاة والسلام فرق بين الأعرابي والعربي بمثل ما في خطبته كل مهاجرٍ ليس بأعرابيٍ حيث جعل المهاجر ضد الأعرابي»[٢].

وبمثل قول شارحَي مشكاة المصابيح الملا القاري والطيبي قال العظيم آبادي في شرحه لسنن أبي داود: «وهذا الوجه أظهر لأنه عليه الصلاة والسلام فرق بين الأعرابي والعربي بمثل ما في خطبته مهاجرٍ ليس بأعرابيٍ حيث جعل المهاجر ضد الأعرابي»[٣].

ولقد بحثت عن هذا الحديث النبوي الذي أشارت إليه أكبر المعاجم، وصرحت بنسبته للرسول ﷺ هذه الكتب من شروح السنة، وجعلته حجة على تفريق الرسول ﷺ بين الأعرابي والعربي! فلم أجده.

إلا أنه بعد النظر ظهر لي أن هناك وهمًا وفهمًا مغلوطًا للعبارات تناقلته الكتب إلى أن صرحت أخيرًا بنسبة هذا الكلام له ﷺ.

---

(١) **تاج العروس** لمرتضى الزبيدي، نشر وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت ٣: ٣٣٤.

(٢) **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح** ٤: ١٥٠٤.

(٣) **عون المعبود للعظيم أبادي وحاشية ابن القيم**، العلمية ٣: ٤١.

فقد جاء في غريب الحديث لابن قتيبة: «وقال في حديث الحجاج بن يوسف إنه خطب حين دخل العراق فقال في خطبته: إني أرى رؤوسًا قد أينعت...»[(١)] ثم أورد في سياق خطبة الحجاج رجزًا فيه «مهاجر ليس بأعرابي»، ثم نقل هذا ابن الأثير في سياق له في كتابه النهاية في غريب الحديث ـ على طريقة أهل الفن الواحد في نقل بعضهم عن بعض ـ فقال: «ومنه حديث ابن الأكوع (لما قتل عثمان خرج إلى الربذة وأقام بها، ثم إنه دخل على الحجاج يومًا فقال له: يا بن الأكوع ارتددت على عقبيك وتعربت) ويروى بالزاي. وسيجيء. ومنه حديث الآخر: تمثل في خطبته مهاجرٌ ليس بأعرابي جعل المهاجر ضد الأعرابي»[(٢)].

فقد أوهمت لفظةُ «حديث» النقلةَ عن ابن الأثير، فظنوه يشير إلى حديث نبوي، وهو إنما يشير إلى حديث الحجاج مستكملًا بذلك سياق كلامه عنه، مستعملًا عبارة ابن قتيبة التي جعلها في كتابه عنوانًا لخطبة الحجاج.

وعندما نقلها صاحب اللسان عن «النهاية» فصل سياق كلام ابن الأثير وقدَّم وأَخَّر، فجاء حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه وخبره مع الحجاج متأخرًا ومنفصلًا بكلام كثير عن الإشارة إلى خطبة الحجاج، وزاد صاحب اللسان بأن

(١) **غريب الحديث** لابن قتيبة ت عبد الله الجبوري ٣:٦٩٣.

(٢) **النهاية في غريب الحديث والأثر** لابن الأثير ت طاهر الزواوي ومحمود الطناحي ٣:٢٠٢.

استعمل لفظة «حديث» مُعَرَّفةً بـ«أل» من غير أن يشير إلى الحجاج، فانصرفت كلمة «الحديث» عند الناقلين عنه إلى حديث رسول الله ﷺ، وهو ما تنصرف له الأذهان عادة إذا جاءت كلمة «الحديث» مُعَرَّفة مفردة.

والقضية هنا ليست في أن يتوهم «شراح الحديث» أن هذا حديث نبوي فحسب، بل المشكلة المضاعفة إيرادهم له في سياق الشرح واتخاذه حجة للإبانة عن معنى «الأعرابي» في حديث آخر جاءت فيه هذه اللفظة[١]، ثم الاستدلال بذلك على تفريق رسول الله ﷺ بين الأعرابي والعربي!

وسوف نرى أنه زيادة على أن شطر الرجز «مهاجر ليس بأعرابي» والخطبة المشار إليهما لا صلة لهما برسول الله ﷺ كما توهم الناقلون، فإنه كذلك لا حجة في هذا الشطر ولا دليل على التفريق بين الأعرابي والعربي من أي وجه.

وعودًا على حديث الحجاج، فقد أشار ابن الأثير إلى أنه «تمثل في خطبته»[٢] مما يعني أن شطر الرجز ليس له، وهذا مما يستدعي البحث عن القائل ومعرفة السياق الذي قيل فيه هذا الرجز، ومعرفة وجه التضاد بين المهاجر والأعرابي.

أورد أبو عبيد البكري خبرًا لهذا الرجز نقله عن المدائني

---

(١) حديث جابر: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والعجمي». انظر الموضعين السابقين من كتابي «مرقاة المفاتيح» و«عون المعبود».

(٢) خطبة الحجاج التي تمثل فيها بهذا الرجز خطبة شهيرة جدًا كانت عند توليته العراق جاءت في «**أنساب الأشراف**» للبلاذري ٧:٢٧٤ كما جاءت في كثير من المصادر.

فقال: «وذكر المدائني أن معاوية بن أبي سفيان جمعه الطريق مع عبد الله بن الزبير من مكة إلى المدينة ومعاوية خليفة، فنزل عبد الله بن الزبير يحدو ويقول:

قد لفها الليل بعصلبي
أروع خراج من الدوي
مهاجرٍ ليس بأعرابي

يعرض بمعاوية أنه ليس من المهاجرين، فقال معاوية لابنه يزيد: انزل فاحد بنا. فنزل يزيد وجعل يقول:

قد لفها الليل بسواقٍ حطم
ليس براعي إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم

يعرض بالزبير بن العوام لأنه كان جزارًا. فلما انتصف من ابن الزبير قال له أبوه معاوية: اركب فداك أبوك»[١].

والسؤال هنا ما الذي يغضب معاوية في أن يفخر ابن الزبير بالهجرة وينفي عن نفسه البداوة إذا كانت كلمة «أعرابي» تعني بدوي؟ وما الذي يجعل يزيد يحتد في رده ليعيِّر ابن الزبير بأن أباه كان جزارًا؟ ولماذا أحس معاوية بعد رد ابنه أنه انتصف؟ كل هذا لا معنى له إذا كانت «أعرابي» تعني بدوي، فابن الزبير يفخر بهجرته على أهل البادية الذين لا شأن لمعاوية بهم.

(١) **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال** لأبي عبيد البكري ت إحسان عباس ٤٠٥.

لكن الصحيح أن ابن الزبير كان بنفيه الأعرابية عن نفسه يثبتها لمعاوية وهو ما أغضب معاوية لأنه لا يستطيع نفيها فأوعز إلى ابنه بالرد فكان رده بالطريقة نفسها فنفى عن نفسه وعن أبيه الصفات التي يراها نقائص لا يستطيع ابن الزبير نفيها عن أبيه فنفى أن يكون راعيًا أو جزارًا، ولم ينف الأعرابية.

فالأعرابية هنا ليست البداوة قطعًا؛ لأن معاوية ﵁ لم يكن بدويًّا قط، وهي أيضًا مضادة للهجرة التي افتخر بها ابن الزبير، وهي الهجرة مع الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وليست الهجرة بالمعنى اللغوي العرفي الذي شاع بعد ذلك.

فهذا معاوية الذي ولد وعاش في مكة وأمضى أكثر عمره أميرًا للشام ثم خليفة للمسلمين يوصف بأنه أعرابي ثم لا يجد وسيلة ينفس بها عن غضبه إلا تحريض ابنه على الرد الذي لم يكن فيه نفي صفة الأعرابية عنه.

بينما نجد صحابيًا آخر من أهل البادية الذين تسميهم المعاجم «الأعراب» شهد الحديبية مع الرسول ﷺ ثم نزل المدينة وشهد خيبر وما بعدها، يغضب لأنه وصف بالأعرابي مع كونه بدويًّا بلا مراء، وحجته على نفي الأعرابية هي التأكيد على أنه من المهاجرين، قال ابن عطية في تفسيره: «وقال ابن زيد: معنى ولا تنابزوا بالألقاب أي لا يقول أحد لأحد: يا يهودي بعد إسلامه. ولا يا فاسق بعد توبته. ونحو هذا. وحكى النقاش أن كعب بن مالك وابن أبي حدرد تلاحيا، فقال له كعب: يا أعرابي. يريد أن

يبعده من الهجرة. فقال له الآخر: يا يهودي. يريد لمخالطة الأنصار اليهود في يثرب. فنزلت الآية»[١].

وما استنتجه ابن عطية هنا من أن القصد إبعاده عن الهجرة جاء صريحًا في تفسير مقاتل من كلام عبد الله بن أبي حدرد ﵁، قال مقاتل: «إن كعب بن مالك الأنصاري كان يكون على المقسم فكان بينه وبين عبد الله بن الحدرد الأسلمي بعض الكلام، فقال له: يا أعرابي، فقال له عبد الله: يا يهودي. ثم انطلق عبد الله فأخبر النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ لعلك قلت له: يا يهودي؟ قال: نعم قد قلت له ذلك إذا لقبني أعرابيًّا وأنا مهاجر، فقال له النبي ـ ﷺ: لا تدخلا علي حتى ينزل الله توبتكما فأوثقا أنفسهما إلى سارية المسجد إلى جنب المنبر، فأنزل الله تعالى فيهما ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ يقول لا يعير الرجل أخاه المسلم بالملة التي كان عليها قبل الإسلام ولا يسميه بغير أهل دينه»[٢].

وهذا يشير مرة أخرى إلى المضادة بين «الأعرابي» و«المهاجر»، وأن الوصف بها لمن ليست صفة له داعية غضب شديد، وفي هذا الخبر إشارة أخرى وهي أن الوصف بالأعرابية كان يعني الاتهام في الدين وليس له علاقة بنمط الحياة، الأمر الذي جعل الرد اتهامًا في الدين

---

(١) **تفسير ابن عطية**، ت عبد السلام عبد الشافي محمد ٥:١٥٠.

(٢) **تفسير مقاتل بن سليمان**، ت عبد الله محمود شحاته ٤:٩٥.

كذلك فكانت عبارة «يا يهودي» هي أول ما يرد على الذهن.

وفي رواية أخرى للخبر أن البادئ عبد الله بن أبي حدرد وأن الراد كعب بن مالك: «أنبأنا أبو جعفر محمد بن أبي علي أنا أبو بكر الصفار أنا أحمد بن علي بن منجويه أنا أبو أحمد الحاكم أنا أبو حاتم مكي بن عبدان نا محمد يعني ابن يحيى نا ابن أبي مريم أنا ابن لهيعة عن بكير بن عبد الله أخبرني سفيان بن فروة الأسلمي أن عبد الله بن أبي حدرد حدثه أنه ساب رجلًا من الأنصار فقال للأنصاري يا يهودي فقال له الأنصاري: يا أعرابي فأتى الأنصاري رسول الله ﷺ يحدثه بالذي قال الأسلمي فقال رسول الله ﷺ: أراك قلت له الأخرى أقلت له يا أعرابي فقال رسول الله ﷺ: فليس بأعرابي ولست بيهودي»[١].

وهذه الرواية تؤكد أن الوصف بالأعرابية كان يعني النقص في الدين لأنه جاء هنا انتقامًا من كعب لوصفه باليهودية، فكان الرد اتهامًا في الدين كما كان البدء، وفيها نفي الأعرابية عن عبد الله بن أبي حدرد مع أنه بدوي من قبيلة بدوية سبق أن رأينا نفي رسول الله ﷺ الأعرابية عنها.

فهناك معاوية الحضري يوصف بالأعرابية ولا يستطيع دفعها عن نفسه ولا نفيها؛ لأنه لم يكن من المهاجرين، وهنا عبد الله بن أبي حدرد البدوي يغضب لأنه وصف بها ويدفعها بالتأكيد على أنه من المهاجرين! فالأعرابية إذن

(١) **تاريخ دمشق** لابن عساكر، ت عمر بن غرامة العمروي ٢٧: ٣٤٣.

لا علاقة لها ببداوة ولا حضارة هذا من جهة، ومن جهة أخرى هي متعلقة بالهجرة ومضادة لها.

فلنعد النظر إذن ولنتفحص هذه اللفظة من منظور جديد واضعين الهجرة نصب أعيننا، ولندرسها بأذهان فارغة من التصورات السابقة وثقل الأقوال والتبريرات التي تملأ الكتب، وحينها سنجد المعنى ينساق طائعًا والمسالك تشرع صدورها له هاشة باشة.

الفصل الثاني

غياب المعنى الشرعي لـ«أعراب» وبعض آثاره

مدخل للمعنى الشرعي للفظة «أعراب»

لا نستطيع أن نبدأ هذا المبحث قبل أن نشير إلى عالم محقق لم يقف عند ما توقف عنده أكثر العلماء الذين استسلموا للمعنى اللغوي المتوهم، فخطا بالمعنى خطوة مهمة للغاية لو وجدت من يعتمدها وينطلق من خلالها إلى المعنى الصحيح لهذه اللفظة، فقد تفرد هذا العالم في محاولة فهم ماهية «الأعراب» متنكبًا في ذلك أقوال من سبقوه، وسابقًا كل من اطلعنا لهم على كلام في تفسير هذه اللفظة، ذاك هو القاضي ابن العربي المالكي أحد كبار شراح السنة والمتمكنين في علوم القرآن وتفسيره، فقد تكلم في هذه اللفظة بكلام لافت في كتابه أحكام القرآن ولكن لم أر لهذا القول رواجًا ولا صدى في الكتب مع تفرده وقربه الكبير من المعنى الصحيح الذي طمسته النقول الكثيرة عن اللغويين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتحقيق القول أن الأعراب جمعٌ، وهو بناءٌ له في الواحد أمثالٌ منها: فُعْلٌ وفَعْلٌ وفِعْلٌ وفَعَلٌ، كقفلٍ وأقفالٍ، وفلسٍ وأفلاسٍ، وحملٍ وأحمالٍ، وجملٍ وأجمالٍ، ولم أجد عربًا بكسر الفاء إلا في نوع من النبات لا يستجيب مع سائر الأبنية، ويا ليت شعري، ما الذي يمنع أن يكون الأعرابي منسوبًا إلى الأعراب، والعربي منسوبًا إلى العرب، ويكون الأعراب هم العرب.

وقد قال النبي ﷺ: (يا سلمان؛ لا تبغضني فتفارق دينك. قال: وكيف أبغضك يا رسول الله؟ قال: تبغض العرب).

وقال: (من غش العرب لم يدخل في شفاعتي).

وقال: (من اقتراب الساعة هلاك العرب).

وقال النبي ﷺ: (لتفرن من الدجال حتى تلحقوا بالجبال. قيل: يا رسول الله؛ فأين العرب يومئذٍ؟ قال: هم قليلٌ).

وقال أيضًا: (سامٌ أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحامٌ أبو الحبش).

ومن غريب هذا الاسم أن بناءه في التركيب للتعميم بناء الحروف في المخارج على الترتيب.

المسألة الثانية: وهي فائدة القول: اعلموا وفقكم الله أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها، فكان مما علم من الأسماء العرب والأعراب والعربية، ولا نبالي كيف كانت كيفية التعلم من لدن آدم إلى الأزمنة المتقادمة قبلنا، وقبل فساد اللغة، فكان هذا اسم اللسان، واسم القبيلة، حتى بعث الله محمدًا سيدها، بل سيد الأمم ﷺ فأعطى الله لها اسمًا شريفًا، وهو نبيٌ، رسولٌ إلى سائر أسمائه حسبما بيناها في شرح الصحيح والقبس وغيره، وأعطى من آثر دينه على أهله وماله اسمًا أشرف من (عربٍ) ومن (قرشٍ) وهو (هجر) فقال: المهاجرون، وأعطى من آوى وناضلٍ اسمًا أشرف من الذي كان وهو (نصرٌ) فقال: الأنصار، وعمهم باسمٍ كريمٍ شريف الموضع والمقطع، وهو (صحبٌ) فقال:

أصحابي، وأعطى من لم يره حظًّا في التشريف باسم عامٍّ يدخلون به في الحرمة، وهي الأخوة، فقال: (وددتُ أني رأيت إخواننا. قلنا: ألسنا بإخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين يأتون من بعد).

فمن دخل في الهجرة أو ترسم بالنصرة فقد كمل له شرف الصحبة، ومن بقي على رسمه الأول بقي عليه اسمه الأول، وهم الأعراب»[١].

فالإمام ابن العربي المفسر والعالم المجتهد يرى أن «أعراب» جمع «عرب» لا غير، وأن الأعراب هم العرب، وأن استعمالها في العرف الشرعي يقابل مصطلحي الأنصار والمهاجرين، فمن لم ينل شرف النصرة ولا الهجرة فهم الأعراب لا فرق في ذلك بين حاضرة العرب وباديتهم.

وهذا القول قول من لم يقلد أحدًا في معنى هذه اللفظة التي ينبني عليها أحكام متعلقة بكتاب الله، وقلت أنه لم يقلد أحدًا، أولًا لتصريحه بذلك في قوله ابتداءً: «والتحقيق»، ثم لتفرده بفائدة القول التي لم نجدها عند أحد ممن سبقه، وكلامه يستدعي الوقوف الطويل والتأمل ثم وضعه موضع الاختبار عرضًا على النصوص الشرعية، ثم نصوص أهل الفصاحة من الجاهليين ومن معاصري حبيبنا ﷺ.

---

(١) **أحكام القرآن** للقاضي أبي بكر ابن العربي، ت محمد عبد القادر عطا ٢: ٥٦٩.

تحقيق معنى «الأعراب» في الاصطلاح الشرعي

إن أول ما تجب الإشارة إليه أن هذه اللفظة لم ترد في كتاب الله جل وعلا إلا في العهد المدني وليس لها وجود في كتاب الله قبل ذلك، فقد جاءت عشر مرات، ستًّا منها في سورة التوبة، واثنتين في سورة الفتح، وواحدة في سورة الأحزاب، وواحدة في سورة الحجرات، كما أن ورودها تكرر على لسان الرسول ﷺ في المدينة كذلك، فهذه اللفظة غير مستعملة في لغة الشرع في العهد المكي.

ومن المتقرر عند العلماء أن للشريعة اصطلاحات خصصت كثيرًا من المعاني اللغوية، فالصلاة ـ مثلًا ـ هي في اللغة مطلق الدعاء أما في الشريعة فهي هذه العبادة المخصوصة المعروفة التي توارى خلفها المعنى اللغوي حتى لا يكاد يعرف، بل إن الشريعة استعملت ألفاظًا لم تكن معهودة ولا معروفة، فلفظة «الجاهلية» التي توصف بها حياة العرب قبل الإسلام لفظة استحدثها الشارع للدلالة على الحال التي كان عليها العرب.

وأمثلة استحداث المعاني والصيغ اللفظية التي جاء بها

الإسلام ليست قليلة، وليس هذا موضع بحثها، ولكن يكفينا منها ما تتضح به الفكرة ويتجلى من خلاله المقصد.

وإن من أظهر الألفاظ التي عرفت مع انتقال حبيبنا ﷺ إلى المدينة وأشهرها لفظة الهجرة والمهاجرين التي تخطت الدلالة اللغوية لتكون اسمًا يطلق على فئة مخصوصة من الناس، وهم المسلمون الذين انتقلوا من دار الشرك إلى دار الإسلام، وفي مقابل هذا المصطلح برز مصطلح الأنصار، الذي ابتلع اسمي الأوس والخزرج، فتجاوز المصطلحان معناهما اللغوي لِيُكوِّنا دلالتين جديدتين ليس المعنى اللغوي إلا جزءًا ضئيلًا فيهما.

وإذا نظرنا إلى حادثة الهجرة رأيناها أحدثت في الحجاز، ثم جزيرة العرب بعد ذلك، تغيرات كثيرة منها الاجتماعي ومنها السياسي ومنها العسكري ومنها غير ذلك.

فمن التغيرات تولدت المصطلحات، وكلما بدأت مرحلة من مراحل التغير استجد لها من المصطلحات ما يعبر عنها، فأول تغير اجتماعي واكبه مصطلحا المهاجرين والأنصار أن مسلمي مكة المنتقلين إلى المدينة ـ القرشي منهم وغير القرشي ـ أصبح اسمهم المهاجرين، ومسلمي الأوس والخزرج وأحلافهما من عرب المدينة أصبحوا بعد العداء قبيلة واحدة اسمها الأنصار.

فهؤلاء هم مسلمو مجتمع المدينة مهاجرون وأنصار، إلا أنه بقي للمسلمين بقية في مكة لم تهاجر، ومكة بعد فرض الهجرة دار حرب يجب على المسلمين الارتحال منها إلى

مهاجر رسول الله ﷺ، فالباقي فيها آثم إلا المستضعفين من الرجال والنساء والذرية وهم الشيوخ والعجائز والأطفال ومن في حكمهم الذين جاء إعذارهم بعد ذلك.

وكانت هذه البقية تحتاج إلى اسم ووصف شرعي أسوة باسمي المهاجرين والأنصار اللذَيْن اتكأت تسميتهما على أصل لغوي ثم جرت النسبة إليها على غير استعمال سابق، فالعرب لم تعرف قبل الهجرة «الأنصار» اسمًا لقوم مخصوصين، وإن استعملته جمعًا لـ«نصير»، وبالتالي لم تستعمل «أنصاري» نسبة إلى الأنصار، ومثلها «مهاجرون» والنسبة إليها «مهاجري»، فكلا لفظي النسبة لم يكونا مستعملين قبل الهجرة، وإن وجد أصلهما اللغوي الذي كان جمعًا كباقي الجموع التي تعرفها اللغة لا أكثر.

ومما نذكر به هنا أن لغة العرب لا ينسب فيها إلى الجمع، وهذه القاعدة أهم الأسباب التي بنى عليها اللغويون نفي أن تكون «أعراب» جمعًا لـ«عرب»، وجعلوها اسمًا خاصًا ببادية العرب لا جمعًا، بينما قبلوا في «أنصار» أن يقال «أنصاري» واعتبروه شذوذًا، وقال بعضهم إن أنصار أصبحت هنا بمنزلة اسم قبيلة كـ«أنمار» والنسبة إليها «أنماري»، و«كلاب» والنسبة إليها «كلابي».

ومن الأحكام الشرعية التي اختصت بتلك المرحلة من مراحل الإسلام أن جاء الأمر الإلهي بعدم التوارث بين المسلم المنتقل إلى المدينة مع رسول الله ﷺ وبين وليه المسلم الباقي في مكة، وصار التوارث بين الأولياء من

المهاجرين، ومن لم يكن له وليٌ من المهاجرين توارث هو وأخوه الأنصاري.

ومثل هذا الحكم وغيره من الأحكام جاءت تأكيدًا على الانفصال شبه الكلي بين المهاجر وغير المهاجر، فكان التعامل الشرعي مع تاركي الهجرة فيه مشابهة من بعض أوجهه من التعامل مع مشركي قريش، بل إن بعضهم لم يكن إسلامه واضحًا، ومنهم من خرج مع قريش في بدر مكثرًا لسوادهم على رسول الله ﷺ تقية وخوفًا من قريش.

ذكر الطبري وغيره ذلك عند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [سورة النساء] فقال: «حدثني يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب قال، أخبرني حيوة أو: ابن لهيعة، الشك من يونس، عن أبي الأسود: أنه سمع مولى لابن عباس يقول عن ابن عباس: إن ناسًا مسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على النبي ﷺ، فيأتي السهم يرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله فيهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حتى بلغ ﴿فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾»[1].

(١) **تفسير الطبري**، ت محمود محمد شاكر، توزيع دار التربية والتراث ٩: ١٠٣.

وقد كان المسلمون في المدينة حريصين أشد الحرص على نجاة المسلمين المقيمين في مكة من سخط الله عليهم وذلك لبقائهم في دار الحرب، فكانوا يرسلون إليهم بالآيات التي نزلت فيهم، فما كان منها وعيدًا كتبوا إليهم به ليحذروا، وما كان رجاء كتبوا به إليهم ليقبلوا، قال الطبري: «حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار قال: سمعت عكرمة يقول: كان ناس بمكة قد شهدوا أن لا إله إلا الله، فلما خرج المشركون إلى بدر أخرجوهم معهم، فقتلوا، فنزلت فيهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، فكتب بها المسلمون الذين بالمدينة إلى المسلمين الذين بمكة. قال: فخرج ناسٌ من المسلمين، حتى إذا كانوا ببعض الطريق طلبهم المشركون، فأدركوهم، فمنهم من أعطى الفتنة، فأنزل الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، فكتب بها المسلمون الذين بالمدينة إلى المسلمين بمكة، وأنزل الله في أولئك الذين أعطوا الفتنة: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ إلى ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة النحل ١١٠]»[1].

فقد كان بقاؤهم في مكة وترك الهجرة مع قدرتهم عليها أشبه بالكفر إن لم يكن كفرًا، وقد كان العباس بن

---

(١) نفسه ٩: ١٠٦.

عبد المطلب من الباقين في مكة رغم إسلامه وهو ممن خرج مع قريش يوم بدر وأسر ولم يقبل رسول الله ﷺ عذره وحاجه بالآية، قال الطبري: «حدثنا محمد بن الحسين قال، حدثنا أحمد بن مفضل قال، حدثنا أسباط، عن السدي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، قال: لما أسر العباس وعقيل ونوفل، قال رسول الله ﷺ للعباس: افد نفسك وابني أخيك. قال: يا رسول الله، ألم نصل قبلتك ونشهد شهادتك؟ قال: يا عباس، إنكم خاصمتم فخصمتم! ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، فيوم نزلت هذه الآية كان من أسلم ولم يهاجر، فهو كافر حتى يهاجر، إلا المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا حيلةً في المال، و(السبيل) الطريق. قال ابن عباس: كنت أنا منهم، من الولدان»[(١)].

فإسلام هؤلاء القوم كان ناقصًا وتدينهم محل نظر، والمروي من الآثار والأخبار حولهم تشير إلى أن موقف كثير من الصحابة منهم كان موقف المتشكك دائمًا.

لكن السؤال ما الاسم الذي عرف به هؤلاء تمييزًا لهم عن خلطائهم من كفار مكة من قريش وغيرها، وتمييزًا لهم كذلك عن المسلمين الذين زكاهم الله من المهاجرين والأنصار؟ وهل استحدث الإسلام اسمًا لهذه الفئة الثالثة التي جعل لها أحكامًا خاصة في الميراث والنصرة؟

---

(١) نفسه ونفس الصفحة.

قال ابن جرير: «حدثني محمد بن سعد قال، حدثني أبي قال، حدثني عمي قال، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يقول: لا هجرة بعد الفتح، إنما هو الشهادة بعد ذلك = ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾. وذلك أن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل: منهم المؤمن المهاجر المباين لقومه في الهجرة، خرج إلى قوم مؤمنين في ديارهم وعقارهم وأموالهم = و﴿ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾، وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة، وشهروا السيوف على من كذب وجحد، فهذان مؤمنان، جعل الله بعضهم أولياء بعض، فكانوا يتوارثون بينهم، إذا توفي المؤمن المهاجر ورثه الأنصاري بالولاية في الدين. وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر. فبرأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، وهي الولاية التي قال الله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾. وكان حقًا على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قاتلوا، إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق، فلا نصر لهم عليهم، إلا على العدو الذين لا ميثاق لهم. ثم أنزل الله بعد ذلك أن ألحق كل ذي رحم برحمه من المؤمنين الذين هاجروا والذين آمنوا ولم يهاجروا. فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيبًا مفروضًا بقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ

عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٧٥]، وبقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [سورة التوبة: ٧١]»[١].

وقد جاء عن الزبير رضي الله عنه أن الآية الناسخة لتوريث غير القرابة إنما نزلت في قريش والأنصار خاصة، قال ابن أبي حاتم: «حدثنا أبي ثنا أحمد بن بكرٍ المصعبي من سكنى بغداد، ثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله فينا خاصة معشر قريش والأنصار وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله قال: وذلك أنا معشر قريشٍ لما قدمنا المدينة ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فواخيناهم وأورثناهم، فآخى أبو بكرٍ خارجة بن زيدٍ، وآخى عمر فلانًا وآخى عثمان بن عفان رجلًا من بني زريق بن سعدٍ الزرقي ويقول بعض الناس غيره قال الزبير: وواخيت أنا كعب بن مالكٍ، وأورثونا وأورثناهم، فلما كان يوم أحدٍ قيل لي: قد قتل أخوك كعب بن مالكٍ، فجئته فانتقلته، فوجدت السلاح قد ثقله فيما نرى، فو الله يا بني لو مات يومئذٍ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريشٍ والأنصار خاصةً فرجعنا إلى مواريثنا»[٢].

فهذه الآيات والأحكام نزلت في هؤلاء القوم من مسلمي مكة الذين لم يهاجروا فما هو اسمهم الشرعي الذي تعارف عليه المسلمون في عصر الرسالة؟

---

(١) **تفسير الطبري** ١٤: ٧٨.

(٢) **تفسير القرآن العظيم** لابن أبي حاتم، ت أسعد محمد الطيب ٥: ١٧٤٢.

قال ابن جرير: «حدثنا أسباط، عن السدي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾، في الميراث = ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾، وهؤلاء الأعراب = ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، في الميراث = ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ يقول: بأنهم مسلمون = ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾، في الميراث = ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾، ثم نسختها الفرائض والمواريث، = ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾. الذين توارثوا على الهجرة = ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾، فتوارث الأعراب والمهاجرون»[1].

فأولوا أرحام الزبير بن العوام وأرحام إخوانه من مهاجري مكة الذين عادوا لموارثتهم اسمهم الأعراب إذن، وهم مسلمو مكة الذين لم يهاجروا، وهذا منقول في روايات كثيرة تصرح بهذا الاسم لهذه الفئة من المسلمين، ولكن الأنظار تتجاوزها لتسلط المعنى اللغوي الحادث على الأذهان.

قال ابن أبي حاتم: «حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ثنا حجاج بن محمدٍ، أنبأ ابن جريج وعثمان بن عطاءٍ عن عطاءٍ الخراساني عن ابن عباسٍ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا... في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعضٍ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من

(١) تفسير الطبري ١٤: ٨١.

ولايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا فكان المهاجر لا يتولى الأعرابي ولا يرث وهو مؤمنٌ ولا يرث الأعرابي المهاجر فنسختها هذه الآية وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله»(١).

وجاءت روايات عديدة غير ما تقدم كلها تصرح بهذا الاسم من غير مجمجة ولا تردد، قال ابن جرير: «حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، إلى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾، قال: لبث المسلمون زمانًا يتوارثون بالهجرة، والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجر شيئًا، فنسخ ذلك بعد ذلك، فألحق الله ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾، [سورة الأحزاب: ٦]، أي: من أهل الشرك، فأجيزت الوصية، ولا ميراث لهم، وصارت المواريث بالملل»(٢).

فالآيات تتحدث عن مكة والمدينة وقريش والأنصار خاصة، فالمهاجرون أي من مكة، والأنصار سكان المدينة، والذين لم يهاجروا أي من مكة وهم الذين يسميهم سلف هذه الأمة الأعراب.

ولا علاقة للأعراب هنا بالبوادي، ومن ظن هذا من

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥: ١٧٤٣.

(٢) تفسير الطبري ١٤: ٨٠.

المتأخرين فقد وهم، ووقع تحت ضغط شيوع خطأِ اللغويين في تفسير معنى «الأعراب».

وبالرغم من صراحة الروايات المتقدمة ووضوحها في المقصود بـ«الأعراب» إلا أنني سأضيف إليها روايات أخرى سردها ابن أبي حاتم في تفسيره لهذه الآيات ثم أزيد الأمر وضوحًا في استحالة أن يكون المقصود بـ«الأعراب» في هذه الروايات البوادي.

قال ابن أبي حاتم: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٩١٨٥ ـ أخبرنا محمد بن سعدٍ العوفي ـ فيما كتب إلي ـ ثنا أبي ثنا عمي عن أبيه عن جده عن عبد الله بن عباسٍ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول: لا هجرة بعد الفتح إنما هو الشهادة بعد ذلك، وذلك أن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل: منهم المؤمن المهاجر المباين لقومه في الهجرة، خرج إلى قومٍ مؤمنين في ديارهم وعقارهم وأموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

٩١٨٦ ـ وبه عن ابن عباسٍ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ قال: آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة، وشهروا السيوف على من كذب وجحد فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعضٍ.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾.

٩١٨٧ ـ حدثنا أبي ثنا أبو صالح ثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباسٍ أولئك بعضهم أولياءَ بعضٍ يعني: في الميراث، جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟﴾.

٩١٨٨ ـ أخبرنا أحمد بن عثمان ـ فيما كتب إلي ـ ثنا أحمد بن المفضل ثنا أسباطٌ عن السدي قوله: والذين آمنوا ولم يهاجروا هؤلاء الأعراب.

٩١٨٩ ـ أخبرنا محمد بن سعد بن عطية ـ فيما كتب ـ إلي ثنا أبي ثنا عمي عن أبيه عن جده عن ابن عباسٍ والذين آمنوا ولم يهاجروا قال: فكانوا يتوارثون بينهم إذا توفي المؤمن المهاجر بالولاية في الدين، وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر.

٩١٩٠ ـ حدثنا أبي ثنا محمد بن عبد الله بن بكير بن سليمان الصنعاني ببيت المقدس ثنا أبو سعيدٍ عبد الرحمن بن عبد الله البصري مولى بني هاشم ثنا عمر بن فروخ ثنا حبيب بن الزبير عن عكرمة في قولً الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟﴾ قال: لبث برهةً والأعرابي لا يرث المهاجر، ولا المهاجر يرث الأعرابي حتى فتحت مكة ودخل الناس في الدين أفواجًا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾.

٩١٩١ ـ حدثنا أبي ثنا أبو صالح كاتب الليث ثنا معاوية بن صالحٍ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباسٍ قوله: ما لكم من ولايتهم من شيءٍ ما لكم من ميراثهم شيءٌ.

٩١٩٢ ـ أخبرنا محمد بن سعد بن عطية ـ فيما كتب إلي ـ ثنا أبي ثنا عمي عن أبيه عن جده عن عبد الله بن عباسٍ ما لكم من ولايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا فبرأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم وهي الولاية التي قال الله: ما لكم من ولايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا وكان حقًا على المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

٩١٩٣ ـ حدثنا أبي ثنا أبو صالحٍ ثنا معاوية بن صالحٍ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباسٍ قوله: وإنْ استنصروكم يعني: إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدوٍ لهم فعليهم أن ينصروهم قال: إلا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ»[1].

لا أحسبنا نحتاج إلى مزيد شرح ففي هذه الآثار المسندة إلى أئمة التفسير من السلف ما يقطع الجدال ويكفي في الاستدلال على أن المقصود بـ«الأعراب» في كلامهم مسلمي مكة الذين لم يهاجروا، وهذا واضح جلي من خلال سياق الآية، ولا وجه يشير إلى أن المقصود بالذين لم يهاجروا بوادي المسلمين، ولو قبلنا ـ جدلًا ـ دخول

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥:١٧٣٨.

البوادي في عموم اللفظ ـ ولا وجه له هنا ـ فهو لا يخرج المعنيين من اللفظ بالأصالة وهم مسلمو مكة الذين لم يهاجروا.

ثم إن الآيات والآثار صريحة في عظم الإثم على هؤلاء القوم، ومن المجمع عليه أن فرض الهجرة والإقامة مع الرسول ﷺ في تلك المرحلة من مراحل دعوة الإسلام كان واجبًا على أهل مكة خاصة، أما غيرهم من أهل القرى فقد جاء ما يشير إلى الترخيص لهم في ذلك ومنه ترخيصه ﷺ لوفد عبدالقيس بالإقامة في قراهم بالبحرين وكان وفودهم في السنة الخامسة للهجرة أو قبلها[(١)] وقصتهم في صحيح البخاري[(٢)] وغيره من كتب السنة.

أما البوادي فلم يتعبدوا بالإقامة في دار هجرته ﷺ، فكانت إقامتهم معه مندوبة لا مفروضة، والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، وفيها دلالات واضحة أن بوادي المسلمين لم يكونوا متعبدين بالإقامة في المدينة الشريفة، من ذلك حديث عائشة وخبر أم سنبلة الذي سبق ذكره، ومن ذلك حديث زاهر بن حرام الأشجعي الذي قال عنه ﷺ: «إن لكل حاضر بادية وإن بادية آل محمد زاهر بن حرام»[(٣)]، وقال عنه البخاري قبل ذلك «وكان

---

(١) انظر **فتح الباري** لابن حجر ٨: ٨٥.

(٢) **صحيح البخاري** ١: ٢٠ حديث (٥٣) وجاءت في مواضع أخرى من الصحيح.

(٣) **التاريخ الكبير** للبخاري، ت المعلمي اليماني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ٣: ٤٤٢.

بدويًّا»[١]، وقال عنه ابن عبد البر: «شهد بدرا، كان حجازيا، يسكن البادية في حياة رسول الله ﷺ»[٢].

فهذا صحابي بدوي قديم الإسلام شهد بدرًا، ولم يسكن المدينة، ولم يأمره الرسول مدة حياته بالإقامة في المدينة، بل إن الحديث الصحيح جاء بتزكيته رضي الله عنه، فقد جاء في المسند: «حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمرٌ، عن ثابتٍ البناني، عن أنسٍ، أن رجلًا من أهل البادية كان اسمه زاهرًا، وكان يهدي إلى رسول الله ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: «إن زاهرًا باديتنا، ونحن حاضروه». وكان النبي ﷺ يحبه، وكان رجلًا دميمًا، فأتاه النبي ﷺ يومًا وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل، فقال: أرسلني من هذا، فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ، حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول: من يشتري العبد؟ فقال: يا رسول الله، إذًا والله تجدني كاسدًا، فقال النبي ﷺ: لكن عند الله لست بكاسدٍ أو قال: لكن عند الله أنت غالٍ»[٣].

وهذا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وهو من بداة الصحابة وهو من أقدم من أسلم من أهل الأرض، قال ابن عبد البر:

---

(١) نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر، ت علي محمد البجاوي ٢: ٥٠٩.

(٣) **مسند أحمد** ٢٠: ٩٠ حديث (١٢٦٤٨) وقال محققه شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

«كان إسلام أبي ذر قديمًا، فيقال: بعد ثلاثة، ويقال بعد أربعة، وقد روي عنه أنه قال: أنا ربع الإسلام. وقيل كان خامسًا، ثم رجع إلى بلاد قومه بعد ما أسلم فأقام بها حتى مضت بدر وأحد والخندق، ثم قدم على النبي ﷺ المدينة فصحبه إلى أن مات»[١].

فأبو ذر الذي أسلم وأسلم نصف قومه قبل الهجرة، وأرجأ النصف الآخر إسلامهم إلى الهجرة وأتوا الرسول ﷺ كما في الصحيح[٢]، ثم أسلمت قبيلة أسلم القبيلة البدوية الأخرى بإسلام غفار، ولم يأت خبر بأن الرسول ﷺ طلب منهم الإقامة معه، بل الأحاديث جاءت بأن الرسول الكريم أذن لأسلم في بداوتها ونفى عنها الأعرابية كما في الأحاديث المروية عنه صلوات الله وسلامه عليه، أما غفار فإني لم أجد خبرًا يوحي بأنها أقامت في المدينة بل إن مفهوم الأخبار الصحيحة عن أبي ذر يشير إلى أنهم كانوا بداة؛ لأنه رضي الله عنه بقي في قومه إلى ما بعد الخندق ثم نزل المدينة مما يعني أنهم لم ينزلوا المدينة قبل الخندق وربما استمروا على بداوتهم بعدها.

وبداوتهم لا تنفي عنهم الهجرة فلا مانع أن يكون الصحابي بدويًّا مهاجرًا فلا تضاد بينهما، فمن كانت بيعته على هجرة البادي فلا تلزمه الإقامة في المدينة خلافًا للهجرة الباتة التي تلزم المبايع عليها أن يقيم في المدينة.

---

(١) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر ١:٢٥٢.

(٢) **صحيح مسلم** ١٤:١٩١٩ حديث ٣٢ ـ (٢٤٧٣).

جاء في الحديث: «حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم أبو سعيدٍ، نا محمد بن شعيب بن شابور، نا يحيى بن أبي عمرٍو السيباني، عن عمرو بن عبد الله الحضرمي أنه حدثه عن واثلة بن الأسقع ﵁ قال: خرجت مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ، فصلى، فلما سلم أقبل الناس بين خارجٍ وقائم، فجعل رسول الله ﷺ لا يرى جالسًا إلا دنا إليه فيسأًله: هل لك من حاجةٍ؟، وبدأ بالصف الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى دنا إلي فقال: هل لك من حاجةٍ؟، فقلت: نعم يا رسول الله، فقال: وما حاجتك؟، قلت: الإسلام، قال: هو خيرٌ لك، قال: وتهاجر؟، قلت: نعم، قال: هجرة البادية أو هجرة الباتة؟، فقلت: أيهما أفضل؟ قال: هجرة الباتة، وهجرة الباتة أن تثبت مع رسول الله ﷺ، وهجرة البادية أن ترجع إلى أهلك وعليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومكرهك ومنشطك، وأثرةٍ عليك، قال: فبسطت يدي إليه فبايعته، فاستثنى لي حين لم أستثن لنفسي، قال: ما استطعت...»[1].

وهجرة الباتة التي تلزم معها الإقامة هي هجرة الحاضر كما جاءت تسميتها بذلك في أحاديث أخرى، وهي أفضل وأكمل من هجرة البادية كما في حديث واثلة وغيره، فقد جاء عند النسائي: «أخبرنا أحمد بن عبد الله بن الحكم

---

(١) **الآحاد والمثاني** لابن أبي عاصم ٢:١٨٧ حديث (١٩٢) وهو في **معجم الطبراني** ٢٢:٨٠ حديث (١٩٢) وفي **تاريخ المدينة** لابن شبة ٢:٤٨٥.

قال: حدثنا محمد بن جعفرٍ قال: حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، عن أبي كثيرٍ، عن عبد الله بن عمرٍو قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أي الهجرة أفضل؟ قال: أن تهجر ما كره ربك عز وجل، وقال رسول الله ﷺ: الهجرة هجرتان: هجرة الحاضر، وهجرة البادي، فأما البادي، فيجيب إذا دعي ويطيع إذا أمر، وأما الحاضر، فهو أعظمهما بليةً، وأعظمهما أجرًا»[١].

وفي هذا الحديث تأكيد لمعنى حديث أم سنبلة وقوله ﷺ عن أسلم: «يا عائشة، إنهم ليسوا بالأعراب، هم أهل باديتنا، ونحن أهل حاضرتهم، وإذا دعوا أجابوا، فليسوا بالأعراب»[٢]، فـ«أسلم» من المهاجرين ولذلك نفى عنهم ﷺ وصف الأعراب لأن هذه الصفة نقيض المهاجرين ولا يجتمع الوصفان في قوم ولا أفراد في آن واحد، ولأن عدم إقامة أسلم في المدينة يوهم أنهم ليسوا من المهاجرين ظنت عائشة رضي الله عنها أنهم أعراب، ولكن رسول الله ﷺ أشار إلى أن شرط هجرة البادية متحقق فيهم وهو إجابة الدعوة فليسوا على ذلك أعرابًا.

وبهذا يتبين لنا بجلاء أن أصل إطلاق «الأعراب» جاء وصفًا لمسلمي مكة الذين تخلفوا عن الهجرة بعد أن فرضها

---

(١) **سنن النسائي**، ت عبد الفتاح أبو غدة ٧: ١٤٤ حديث (٤١٦٥) وقال الألباني: «صحيح»، وهو في **مسند أحمد** ١١: ٢٦ حديث (٦٤٨٧) وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح».

(٢) حديث سابق.

الله عليهم، وأن لفظ «أعرابي» الذي استحدثه الإسلام ـ كما استحدث «أنصاري ومهاجري» ـ جاء وصفًا للمتخلفين عن الهجرة والإقامة مع الرسول ﷺ بعد وجوبها عليهم، سواء كانوا من أهل مكة أو ممن بايع على الإقامة في المدينة ثم تركها.

من أحاديث أعراب مكة المشهورة في كتب السنة

وعلى ما قدمنا فإذا وجدنا في الأحاديث النبوية الشريفة أو في سيرته ﷺ أن أعرابيًّا فعل كذا أو قال كذا، أو أنه ﷺ قال لأعرابي أو أعطى أعرابيًّا فيجب ألَّا تذهب بنا الأوهام إلى أن هذا الأعرابي تعني بدويًّا بالضرورة فقد يكون هذا الأعرابي قرشيًّا وربما يكون من بني عبد مناف أيضًا عشيرة رسول الله ﷺ.

وسوف نشير إلى بعض الأحاديث التي شاعت لدى المنتسبين إلى العلم والدعوة سواء في دروسهم ومحاضراتهم أو حتى في كتبهم، واستشهادهم بها في سياق الحديث عن حلم الرسول ﷺ وكرمه، أو في سياق الحديث عن جفاء البوادي وقلة علمهم وعدم تأدبهم مع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، لنرى هل هذا الجفاء والجهل في دين الله كان وصفًا لأهل البادية أم كان وصفًا للأعراب من سكان القرى وسكان البادية على السواء؟

من ذلك قصة ذلك الأعرابي الذي أعطاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه غنمًا بين جبلين فلما عاد لقومه قال: «يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف

الفقر»، وهي قصة يظهر فيها جود النبي الكريم، ويظهر فيها مدى تأثير العطاء في نفوس الأعراب وكيف يكون ذلك سببًا في تألفهم وإسلامهم.

جاء خبر هذا الأعرابي في أحاديث كثيرة كلها عن أنس منها ما جاء فيه ذكر هذا الأعرابي بصيغة «رجل» وهو عموم يشمل جنس الرجال، كما في صحيح مسلم: «وحدثنا عاصم بن النضر التيمي، حدثنا خالدٌ يعني ابن الحارث، حدثنا حميدٌ، عن موسى بن أنسٍ، عن أبيه، قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة»[1].

ومنها ما جاء أكثر تخصيصًا فحددت الفئة التي ينتمي إليها هذا الرجل فجاء لفظ «أعرابي» كما في مسند البزار: «حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن علي، قالا: حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا حميد عن موسى بن أنسٍ، عن أنس؛ أن أعرابيًّا أتى النبي ﷺ فأمر له بغنم بين جبلين فأتى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا ﷺ يعطي عطاءً لا يخاف الفاقة.

وهذا الحديث لا نعلمه يروى إلا عن أنس، ولا نعلم له طريقًا عن أنس أحسن من هذا الطريق»[2].

وكما جاء في صحيح ابن حبان كذلك: «سمعت أبا بكرٍ

(١) **صحيح مسلم** ٤: ١٨٠٦ حديث ٥٧ ـ (٢٣١٢).
(٢) **مسند البزار** ١٣: ٤٨٨ حديث (٧٢٩٦).

محمد بن أحمد بن سليمان بن أبي شيخ بواسط، يقول: سمعت عبيد الله بن محمد بن عائشة، يقول: أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابتٍ عن أنسٍ أن أعرابيًّا سأل النبي ﷺ، فأمر له ـ بغنم ذكر بن عائشة كثرتها ـ فأتى الأعرابي قومه، وقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر»(١).

فهذا الرجل المعطى صاحب هذه العبارة الشهيرة أعرابي بلا شك، ولكن هل هو بدويٌّ؟ وهل نص أحد من العلماء على اسمه؟

إن من يجمع بين الروايات المتعلقة بحنين لن يجد مشقة في معرفة أن هذا الأعرابي المذكور هو أحد أشراف قريش وسادتها الذين كان لهم عند الرسول ﷺ مكانة واعتبار، وأن «الأعرابي» هنا صفة لا علاقة لها ولا صلة بالبادية، وإنما هي على المعنى الذي أكدنا عليه مرارًا وهو عدم الهجرة مع الرسول ﷺ التي تشرف بها من أسلم وهاجر قبل الفتح.

لقد أشار العديد من علماء السير إلى أن الأعرابي المقصود في هذا الحديث هو صفوان بن أمية بن خلف الجمحي رضي الله عنه، ومن ذلك ما جاء في شرح الشفا: «(وعن أنس رضي الله عنه) على ما رواه مسلم (أن رجلًا) وهو صفوان بن أمية الجمحي القرشي أسلم بعد الفتح وشهد مع

---

(١) **صحيح ابن حبان**، ت محمد علي سونمز وخالص آي دمير ١٠: ٣٥٤ حديث (٤٥٠٢) وقال المحققان: «إسناده صحيح».

رسول الله ﷺ حنينًا والطائف وهو مشرك فلما أعطاه رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه وأكثر قال أشهد بالله ما طابت بهذا إلا نفس نبي فأسلم يومئذ أخرج له مسلم والأربعة وأحمد في مسنده ومات بمكة في خلافة معاوية (سأله) أي النبي ﷺ شيئًا من العطاء (فأعطاه غنمًا) أي قطيعة غنم والمراد غنمًا كثيرًا يملأ واديًا (بين جبلين) لسعة جوده وسماحة نفسه والظاهر أنه كان بعد إسلامه أو صار سببا لإسلامه لقوله (فرجع إلى بلده) ويروى إلى قومه (وقال أسلموا) فإن إعطاءه من بين أخلاقه كالمعجزة (فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى فاقة))»[١].

ومثله ما جاء في عيون الأثر[٢] وفي بهجة المحافل[٣].

فهذا الأعرابي قرشي مكي سيد من سادات قريش، ولولا تعدد روايات حنين وكثرة ما فيها من الأحداث لما عرف هذا الأعرابي ولأجرينا عليه المعنى المعجمي المتأخر واعتبرناه بدويًّا كما جاء على ألسنة كثير من الوعاظ، وكما يفهم من كلام بعض فضلاء أهل العلم الذين أشاروا في تعليقاتهم على هذا الحديث بأن الأعراب يحبون الغنم والإبل مما يشي بأن هذا الأعرابي عنده من أهل البادية.

فهذا أحد الأعراب الذين شاع خبرهم في كتب السنة،

---

(١) **شرح الشفا** للملا علي القاري، العلمية ١ :٢٨٧.

(٢) انظر **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** لابن سيد الناس، ت إبراهيم محمد رمضان ٢ :٣٩٨.

(٣) انظر **بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل** ليحيى بن أبي بكر الحرضي، دار صادر ١ :٤٢٣.

وفي السير، وانصرفت الأنظار إلى أنه بدوي أخذًا من معنى لفظ «أعراب» الذي استقر لدينا وليس من معناه في عصر من تكلم به، فما هو الحال بالأعراب الكثيرين الذين يتكرر ذكرهم في الأحاديث والأخبار؟ هل هم من أهل مكة كذلك أم من أهل اليمن أم قرى اليمامة أم الطائف أم من بوادي الحجاز أم من بوادي نجد؟

إننا لا نستطيع الجزم بشيء من ذلك إلا بحجة أو أثر، فصرف كل «أعرابي» ورد في السنة إلى أنه بدوي خطأ تجب معالجته، وسببه المعنى اللغوي الخاطئ الذي شاع في كتب المعاجم وتناقلته كتب التفاسير والشروح وطمس المعنى الذي عرفه العرب الفصحاء قبل الإسلام والمعنى الشرعي الذي استعمله الرسول ﷺ وسلف هذه الأمة من الصحابة الكرام وتابعيهم.

إن من الأحاديث الشهيرة التي يُستَدلُّ بها على حلم الرسول ﷺ وكرمه، وكذلك يستدل بها على جفاء الأعراب الذين هم في كتب الشروح البوادي حديث أبي هريرة عن الأعرابي الذي جاء يطلب شيئًا من رسول الله ﷺ وأغلظ للرسول الكريم فهم به الصحابة ومنعهم عنه ﷺ.

قال أبو الشيخ الأصبهاني: «حدثنا محمد بن العباس، ثنا إسحاق بن الضيف، ثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، حدثني أبي، عن عكرمة، عن أبي هريرة، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد أعطني، فإنك لا تعطي من

مالك ولا من مال أبيك، وأغلظ للنبي ﷺ، فوثب أصحابه فقالوا: يا عدو الله تقول هذا لرسول الله ﷺ؟ فقال: عزمت عليكم لما أمسكتم. فدعاه فدخل بيته فأعطاه فقال: أرضيت؟ قال: لا، ثم أعطاه أيضًا، فقال: أرضيت؟ قال: لا، ثم أعطاه الثالثة، فقال: أرضيت؟ قال: نعم، قال: فاخرج إلى أصحابي فأخبرهم أنك قد رضيت؛ فإن في قلوبهم عليك شيئًا، ثم قال رسول الله ﷺ: أتدرون ما مثلي ومثل هذا الأعرابي؟، مثل رجلٍ في فلاةٍ من الأرض، معه زاده وراحلته فنفرت راحلته فاتبعها الناس، فما زادوها إلا نفورًا، فقال: دعوني فإني أعلم بناقتي منكم، فعمد إلى قمام الأرض ـ يعني الحشيش ـ فجعل يقول لها: هوي هوي، حتى رجعت، فأناخها فحمل عليها زاده ثم استوى على متنها، فلو تركتكم حين قال ما قال فقتلتموه، دخل النار فما زلت حتى فعلت ما فعلت وقال ما قال»[(١)].

فالرجل هنا أعرابي لا يعرف عنه أكثر من ذلك، والأعرابيُّ كما بَيَّنَّا لا تعني البدوي بالضرورة فقد يكون هذا الأعرابي بدويًّا وقد يكون غير ذلك، ولكنه أساء الأدب مع رسول الله ﷺ واجترأ جرأة إساءة وتعدٍّ لا جرأة سؤال وعدم تهذيب في المعاملة اللذين يمكن حملهما على الجهل ونقص العلم.

وللحديث روايات أخرى فيها زيادات تفسر سوء الأدب

---

(١) **أمثال الحديث** لأبي الشيخ الأصبهاني، ت عبد النبي عبد الحميد حامد ٣٠٠.

هذا فقد جاء عند أبي الشيخ: «حدثنا محمد بن العباس بن أيوب، نا إسحاق بن الضيف، نا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة، أن أعرابيًّا، جاء إلى النبي ﷺ يستعينه في شيءٍ، فأعطاه شيئًا، ثم قال: أحسنت إليك؟ فقال الأعرابي: لا، ولا أجملت قال: فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا. قال عكرمة: قال أبو هريرة: ثم قام النبي ﷺ فدخل منزله، ثم أرسل إلى الأعرابي، فدعاه إلى البيت، فقال: إنك جئتنا فسألتنا، فأعطيناك، فقلت: ما قلته، فزاده رسول الله ﷺ شيئًا، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا، فقال له النبي ﷺ: إنك كنت جئتنا فسألتنا، فأعطيناك، وقلت ما قلت، وفى أنفس أصحابي شيءٌ من ذلك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى تذهب من صدورهم ما فيها عليك. قال: نعم. قال عكرمة: قال أبو هريرة: فلما كان الغد أو العشي، جاء فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم هذا كان جاء فسألنا، فأعطيناه، وقال ما قال، وإنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه فزعم أنه قد رضي، أكذلك؟ قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا. قال أبو هريرة: فقال النبي ﷺ: ألا إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجلٍ كانت له ناقةٌ فشردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورًا، فناداهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي، فأنا أرفق بها وأعلم، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها وأخذ لها من قمام الأرض، فردها هونًا هونًا هونًا حتى جاءت واستناخت

وشد عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه، دخل النار»[١].

وجاء كذلك في مسند البزار: «حدثنا سلمة بن شبيب، وأحمد بن منصور، قالا: حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، قال: حدثني أبي عن عكرمة، عن أبي هريرة؛ أن أعرابيًّا جاء إلى النبي ﷺ يستعينه في شيء قال عكرمة أراه قال: في دم فأعطاه رسول الله ﷺ شيئًا، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا، ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار النبي ﷺ أن كفوا فلما قام النبي ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال له: إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت فزاده رسول الله ﷺ شيئًا فقال: أحسنت إليك؟ فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشير خيرًا. فقال النبي ﷺ: إنك كنت جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم قال: نعم قال فحدثني الحكم أن عكرمة قال: قال أبو هريرة فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي أكذلك؟ قال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشير خيرًا. قال أبو هريرة فقال النبي ﷺ: إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها

---

(١) **أخلاق النبي** لأبي الشيخ الأصبهاني، ت صالح بن محمد الونيان ٤٧٢.

الناس فلم يزيدوها إلا نفورًا فقال لهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم بها فتوجه إليها صاحب الناقة فأخذ لها من قتام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإني لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار»[1].

والزيادات التي نستطيع أن نفهم بها هذه الجرأة وسوء الأدب مع رسول الله ﷺ قول الراوي: «أراه قال: في دم» يعني أن الاستعانة كانت في دية ركبت هذا الأعرابي، وكذلك قول الأعرابي بعد ما رضي بالعطاء «جزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا».

وإذا عرفنا تقاليد العرب في أمور الدماء والديات التي تركب القبائل والعشائر، وطرائقهم في جمعها وتحصيلها من الأدنى فالأدنى، وأنهم كانوا يرونها حقًّا لازمًا لا يعذر أحد من أبناء العشيرة الواحدة في التنصل منه، استطعنا أن نفهم هذا الأعرابي الذي لم يتهذب بأخلاق الإسلام ولم يعرف حق رسول الله ﷺ، إذ أنه كان يعامل رسول الله على أنه ابن عشيرته الذي تلزمه حقوق العشيرة الواحدة لا غير، غير ملتفت للحق الخاص بالرسول صلوات الله وسلامه عليه الذي يقتضي غاية التأدب معه فداه الآباء والأمهات.

---

(١) **مسند البزار** ١٥: ٢٩٤ حديث (٨٧٩٩) وعلى الرغم من ضعف سند هذا الحديث إلا أن كثيرًا من محققي العلماء استشهدوا به ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في **الصارم المسلول على شاتم الرسول** ٢٣٥، والحديث مشهور عند أهل السير وقد صرح بعض العلماء بجواز الاستشهاد به في الفضائل ومنهم الشيخ محمد أبو شهبة في كتابه **السيرة النبوية على ضوء الكتاب والسنة** ٢: ٦٤٠.

ففي قول هذا الأعرابي: «جزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرًا» ما يفهم منه أن هذا الأعرابي من أهل الرسول ومن عشيرته، وكذلك في احتمال الرسول الكريم له برغم سوء أدبه ما يشير إلى هذا، وأحسب أن الرسول ﷺ نظر في هذا إلى ما اعتاده العرب في مثل هذه الأحوال وما ألفوه في قضايا الدماء والديات التي تلزم العشيرة الواحدة، وتشددهم فيها، ولومهم الشديد على من قصر من أبناء العشيرة في أدائها على الوجه الذي يرتضونه.

وعلى الرغم من أن ألفاظ الحديث السالفة كافية في الدلالة على أن هذا الأعرابي من عشيرة الرسول ﷺ ومن أهله إلا أنه جاء في بعض الروايات تصريح بنسب هذا الأعرابي يدل على قربه الشديد من رسول الهدى ﷺ فقد جاء في بهجة المحافل: «. . . فقال له النبي ﷺ إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك قال نعم فلما كان الغداة وقال العبشمي جاء فقال رسول الله ﷺ إن هذا الأعرابي. . .»[1].

ففي هذا تصريح أن هذا الأعرابي المستعين في الدم المنتسب إلى عشيرة النبي وأهله عبشمي، والعبشمي في قريش تعني الانتساب إلى عبد شمس وهو أخو هاشم بن

---

(١) **بهجة المحافل** للحرضي ٢:٢٨٥ وقوله: قال فعل ماض من «يقيل» مأخوذ من القيلولة.

عبد مناف جد الرسول ﷺ، وبنو عبد مناف هم عشيرة الحبيب صلوات الله وسلامه عليه.

والتعمية على اسم هذا الأعرابي المسيء ليست بدعًا من الرواة هنا، فكثيرًا ما يتعمدون ذلك إذا كان من صدر منه الخطأ صاحب سابقة في الإسلام أو كان ممن حسن إسلامه بعد ذلك واشتهر بالخير، وغالبًا ما يكون هؤلاء المعمى على أسمائهم من قريش أو من الأنصار؛ لأن غالب حال الصحابة أنهم كانوا يتعمدون في ذلك الستر وعدم إشهار الخطأ والتشنيع به على بعضهم رضوان الله عليهم أجمعين، وربما تعمدوا إخفاء الأسماء مراعاة لخلطائهم ومجالسيهم من أبناء أولئك القوم.

فهناك أحاديث عديدة لا يصرح فيها الراوي باسم الشخص المقصود ويكون ظاهرًا فيها قصد الستر لا عدم المعرفة، وأمثلة هذا كثيرة ومنها ما جاء في خبر ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم وقول الراوي: «يعرض برجل»[(١)] بدل «يعرض بابن عباس»، ومثله ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه يوم حنين عندما انهزم المسلمون عن رسول الله ﷺ قال أنس: «وفرت الأعراب ومن تعلم من الناس...»[(٢)]، وهو حديث طويل، فتعمد رضي الله عنه عدم ذكر أسماء الفارين من

---

(١) جزء من حديث سيرد معنا كاملًا جاء في **صحيح مسلم** ٢:١٠٢٦ حديث ٢٧ ـ (١٤٠٦).

(٢) **صحيح مسلم** ٢:٧٣٦ حديث ١٣٦ ـ (١٠٥٩) و**مسند أحمد** ١٠:٥٧ حديث (١٢٦٠٨).

الأعراب، ومن كنى عنهم بقوله «ومن تعلم. . . » لأنهم من أخيار الصحابة رضوان الله عليهم.

وإذا نظرنا إلى كثير من الأحاديث التي ورد فيها ذكر للأعراب المبهمين المجترئين بالإساءة على رسول الله ﷺ، وليس الذين تتضمن أخبارهم الجهل وعدم المعرفة كالذي بال في المسجد جهلًا أو الذي سأل الرسول عن ثياب أهل الجنة أو أمثالهم، فإننا سنجد الأولين يتعمدون النيل من رسول الله ﷺ غير مبالين ونرى الرسول ﷺ يلين لهم مع قدرته التامة على معاقبتهم، بل إننا رأيناه يمنع أصحابه من معاقبتهم، وهذا يشير إلى أمرٍ تجلى لنا في الحديث السابق وهو مراعاة الرسول لحق القربى والرحم الذي كان السبب الأول لجرأتهم عليه صلوات ربي وسلامه عليه.

ومن الأحاديث التي نرى فيها الجرأة على الرسول الكريم وإذا نظرنا إلى سياقها الزمني ترجح لنا أن الأعرابي المقصود فيها من قرابة رسول الله ﷺ، حديث أبي موسى الأشعري عندما نزل الرسول الجعرانة بعد حنين والطائف فقد جاء في الصحيح: «حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن بريد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: كنت عند النبي ﷺ وهو نازلٌ بالجعرانة بين مكة والمدينة، ومعه بلالٌ فأتى النبي ﷺ أعرابيٌ فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: أبشر فقال: قد أكثرت علي من أبشر، فأقبل على أبي موسى وبلالٍ كهيئة الغضبان، فقال: رد البشرى، فاقبلا أنتما

قالا: قبلنا، ثم دعا بقدحٍ فيه ماءٌ، فغسل يديه ووجهه فيه ومج فيه، ثم قال: اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا. فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر: أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفةً»[(١)].

وجاء في صحيح مسلم: «رجل أعرابي»، ومن المترجح أن هذا الرجل الأعرابي معروف لدى الصحابة وأن اسمه قد أبهم قصدًا[(٢)] لا سيما أنه قد تكرر طلبه من رسول الله ﷺ وتكرر عليه من الرسول قول «أبشر» مما يعني تكرر مقابلته للرسول ﷺ ومشاهدة الصحابة له، وإذا علمنا أن أعراب قريش سواء من كان مسلمًا قبل الفتح ومقيمًا في مكة لم يهاجر أو من أسلم بعد الفتح كانت أعدادهم كبيرة في جيش الرسول ﷺ يومي حنين والطائف، وقد كان لسادتهم النصيب الأكبر من غنائم حنين التي قسمها الرسول بعد نزوله الجعرانة عائدًا من الطائف، وإذا علمنا أن عمود الأعراب المنعوتين بالفرار يوم حنين كانوا منهم، ترجح لنا أن هذا الأعرابي من قريش، وأنه كان من الذين يطمعون في أعطية خاصة أسوة بمن أعطوا الأعطيات الخاصة من قريش، أو الذين أعطوا من الأشراف المعدودين الذين شهدوا حنينًا من غير قريش[(٣)].

---

(١) **صحيح البخاري** ٥:١٥٧ حديث (٤٣٢٨).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: «لم يسم هذا الأعرابي» **فتح الباري** ١:٣٠٨. وقال: «لم أقف على اسمه» **الفتح** ٨:٤٦.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: «يحتمل أن الوعد كان خاصًّا به ويحتمل أن يكون عامًّا وكان طلبه أن يعجل له نصيبه من الغنيمة فإنه ﷺ كان أمرأن تجمع غنائم =

ومن أشهر أحاديث الأعراب المذكورين في سياق أخبار حنين والطائف ونزوله ﷺ بالجعرانة ما جاء في الحديث المتفق عليه في خبر الرجل الذي جاء إلى الرسول ﷺ محرمًا بالعمرة وهو يلبس جبة وقد تضمخ بالطيب، وقد جاء في كثير من كتب السنة «رجل» وفي أخرى «أعرابي» سيرًا من بعض الرواة على ما سبق أن أشرنا إليه من إبهام الأسماء، قال البخاري رحمه الله: «حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل، حدثنا ابن جريج، قال: أخبرني عطاءٌ، أن صفوان بن يعلى بن أمية، أخبره: أن يعلى كان يقول: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه، قال: فبينا النبي ﷺ بالجعرانة وعليه ثوبٌ قد أظل به، معه فيه ناسٌ من أصحابه، إذ جاءه أعرابيٌّ عليه جبةٌ متضمخٌ بطيبٍ، فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجلٍ أحرم بعمرةٍ في جبةٍ بعدما تضمخ بالطيب؟ فأشار عمر إلى يعلى بيده: أن تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر الوجه، يغط كذلك ساعةً، ثم سري عنه، فقال: أين الذي يسألني عن العمرة آنفًا فالتمس الرجل فأتي به، فقال: أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مراتٍ، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك»[(١)].

= حنين بالجعرانة وتوجه هو بالعساكر إلى الطائف فلما رجع منها قسم الغنائم حينئذ بالجعرانة» **الفتح** ٨: ٤٦.

(١) **صحيح البخاري** ٥: ١٥٧ حديث (٤٣٢٩).

فمن هو هذا الأعرابي المذكور؟ وهل نعتبره من سكان البادية سيرًا على ما في المعاجم؟

قال الإمام الطحاوي: «حدثنا سليمان، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا شعبة، عن قتادة، عن عطاء بن أبي رباحٍ، «أن رجلًا، يقال له يعلى بن أمية أحرم وعليه جبةٌ فأمره النبي ﷺ أن ينزعها. قال قتادة: قلت لعطاءٍ: إنما كنا نرى أن يشقها فقال عطاءٌ: إن الله لا يحب الفساد»[١].

فهذا «الأعرابي» إذن هو راوي حديث البخاري وهذا ما أكده الحافظ ابن حجر في رده لقول من قال إن الأعرابي المقصود هو عطاء أخو يعلى، قال رحمه الله: «حديث يعلى بن أمية جاء رجلٌ فقال يا رسول الله كيف ترى في رجلٍ أحرم بعمرةٍ وهو متضمخٌ بطيبٍ الحديث حكى ابن فتحون في الذيل أن اسم الرجل عطاء ابن منبه وعزاه لتفسير الطرطوسي وفيه نظر وقال إن صح فهو أخو يعلى بن أمية وفي الشفاء لعياض ما يشعر بأن اسمه عمرو بن سواد والصواب يعلى بن أمية راوي الحديث كما أخرجه الطحاوي من طريق شعبة عن قتادة عن عطاءٍ أن رجلًا يقال له يعلى...»[٢].

إذن هذا الرجل الأعرابي اسمه يعلى بن أمية، لكن ما زلنا بحاجة إلى أن نعرف من هو يعلى بن أمية؟

---

(١) **شرح معاني الآثار** لأبي جعفر الطحاوي ٢: ١٣٩ حديث (٣٦٤٥).

(٢) **فتح الباري** للحافظ ابن حجر ١: ٢٣٧.

لن نجد مشقة في معرفة يعلى فهو شهير في كتب التراجم وتواريخ الإسلام، قال الذهبي: «يعلى بن أمية بن أبي عبيدة التميمي المكي حليف قريشٍ، وهو يعلى بن منية بنت غزوان؛ أخت عتبة بن غزوانً. أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه»[(١)].

فيعلى تميمي نسبًا، مكيٌ سكنى وإقامة، قرشيٌ حلفًا، وحلفه لبني نوفل بن عبد مناف خاصة[(٢)].

ويعلى ممن ولي الأعمال للخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم، فقد كان عاملًا لأبي بكر على حلوان في الردة، ثم لعمر على بعض اليمن، ثم لعثمان على صنعاء، وكان جوادًا كريمًا مشهورًا.

فيعلى «الأعرابي» لا علاقة له بالبادية، فأبوه وأمه وأخواله كلهم من سكان مكة[(٣)]، فهل يستقيم أن يكون معنى «الأعرابية» هنا سكنى البادية؟ وهل يصح أن يقال عن هذا الصحابي الأعرابي المكي أنه بدوي؟[(٤)]

ومما جاء في كتب السير وغيرها من أخبار غزوة حنين ما ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه، قال ابن أبي شيبة:

---

(١) **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ت مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ٣:١٠٠.

(٢) انظر **الطبقات الكبرى** لابن سعد ٦:١١.

(٣) انظر **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر ٤:١٥٨٦ **وسير أعلام النبلاء**، ٣:١٠٠.

(٤) من صور تسلط المعنى المعجمي لـ«أعرابي» أن بعض شراح الحديث، مع علمه أن الأعرابي المقصود في الحديث هو يعلى بن أمية يقول في شرحه: «(إذ جاءه رجل أعرابي) منسوب إلى الأعراب وهم سكان البادية أي بدوي». **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح** للمباركفوري ٩:٣٤٨.

«عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن عبيدة، أن أبا سفيان، وحكيم بن حزامٍ، وصفوان بن أمية، خرجوا يوم حنينٍ ينظرون على من تكون الدبرة، فمر بهم أعرابي فقالوا: يا عبد الله، ما فعل الناس؟ قال: لا يستقبلها محمدٌ أبدًا، قال: وذلك حين تفرق عنه أصحابه، فقال بعضهم لبعضٍ: لربٌّ من قريش أحب إلينا من رب الأعراب، يا فلان، اذهب فأتنا بالخبر لصاحبٍ لهم، قال: فذهب حتى كان بين ظهراني القوم، فسمعهم يقولون: يا للأوس، يا للخزرج، وقد علوا القوم، وكان شعار النبي عليه الصلاة والسلام»[1].

وهذا الأعرابي الذي خوطب بهذا القول رجل من قريش والقائل هو صفوان بن أمية عينًا كما جاء عند البيهقي: «ومر رجلٌ من قريشٍ على صفوان بن أمية، فقال: أبشر بهزيمة محمدٍ وأصحابه فو الله لا يجتبرونها أبدًا، فقال له صفوان: أتبشرني بظهور الأعراب، فوالله لربٌّ من قريشٍ، أحب إلي من ربٍّ من الأعراب»[2].

فمن هذا الأعرابي القرشي؟

جاءت عبارة صفوان بن أمية ورده على هذا الرجل الأعرابي في كثير من الكتب، وممن نقلها في سياق الحديث عن صفوان وموقفه من الرسول ﷺ يوم حنين الإمام الشافعي فقال: «وقال فيه عند الهزيمة أحسن مما قال

(١) **مصنف ابن أبي شيبة**، ت كمال يوسف الحوت ٧:٤١٨ حديث (٣٦٩٩٦).

(٢) **دلائل النبوة** للبيهقي، ت عبد المعطي قلعجي ٥:١٣١.

فيه بعض من أسلم من أهل مكة عام الفتح، وذلك أن الهزيمة كانت في أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنينٍ في أول النهار فقال له رجلٌ: غلبت هوازن وقتل محمدٌ، فقال صفوان: بفيك الحجر فوالله لربٌّ من قريشٍ أحب إلي من ربِّ هوازن»[1].

إذن فالرجل من أهل مكة كما يؤكد الإمام الشافعي، وقد صرح الماوردي وغيره أن المكي الذي أجيب بهذا القول من صفوان هو أبو سفيان بن حرب رضي الله عنهما، قال الماوردي متحدثًا عن صفوان: «وسمع أبا سفيان يقول: غلبت هوازن وقتل محمدٌ، فقال له: بفيك الحجر، والله لرب من قريشٍ أحب إلينا من رب من هوازن»[2].

فالأعرابي إذن هو أبو سفيان بن حرب القرشي أحد زعماء مكة وكبارها في الجاهلية والإسلام، ورأينا قبل ذلك صفوان بن أمية يوصف بالأعرابي، ورأينا قبله معاوية بن أبي سفيان يوصف بأنه أعرابي، ورأينا «الأعرابي» تطلق على يعلى بن أمية المكي حليف قريش، بل إن كل من خرج مع الرسول ﷺ من قريش من غير المهاجرين أعراب، وفيهم الجفاة الذين لم يتمكن الإيمان في قلوبهم كما وصفهم ابن كثير فقال: «قال ابن إسحاق: ولما انهزم الناس تكلم رجالٌ من جفاة الأعراب بما في أنفسهم من

(١) **الأم** للإمام الشافعي، نشر دار المعرفة ٢: ٩٢.

(٢) **الحاوي الكبير** للماوردي، ت علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ١٣: ١٣٠.

الضغن فقال أبو سفيان صخر بن حرب ـ يعنى وكان إسلامه بعد مدخولًا وكانت الأزلام بعد معه يومئذٍ ـ قال: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر»[١].

بينما وجد من هؤلاء الأعراب من تمكن الإيمان والإسلام في قلبه كعتاب بن أسيد الأموي الذي أَمَّرَه الرسول الكريم على مكة عند خروجه لحنين.

---

(١) **السيرة النبوية** لابن كثير، ت مصطفى عبد الواحد ٣:٦١٩. وكذلك في **البداية والنهاية**، ت عبد الله بن عبد المحسن التركي ٧:١٦.

حديث «المسيء صلاته» والأعرابية المتوهمة

إن الأحاديث التي عرضناها من أشهر أحاديث الأعراب، وأعرابها كلهم مكيون قرشيون إما نسبًا وإما حلفًا، وليسوا من البادية في قبيل ولا دبير، ومع ذلك فهم في وعينا وثقافتنا وما انطبع في أذهاننا بدو من سكان القفار والصحاري، والسبب في ذلك ما تفيض به كتبنا ومؤلفاتنا ورسائلنا العلمية من أن «الأعراب» لا معنى لها إلا «البادية» وأن «الأعرابي» لا تعني سوى «البدوي».

وعليه فقد أسقطت جميع الصفات المذمومة للأعراب الواردة في كتب السنة وفي آيات الكتاب الكريم على أهل البادية، وصارت من المسلمات حتى عند أفاضل العلماء، ولكثرة ما نسب إلى الأعراب من الجهل (الجفاء) حينًا وسوء الأدب حينًا آخر، صارت الأخطاء التي لم يصرح فيها باسم لا تجد طريقًا أيسر من نسبتها إلى أعرابي (بدوي)، ودخل هذا الأمر حتى على كبار الأئمة من أهل التحقيق ـ فضلًا عن غيرهم ـ والجميع في كل ذلك واقع تحت تأثير الترادف الذي توهمه اللغويون.

وسأضرب لذلك مثالًا واحدًا بحديث المسيء صلاته، وهو حديث متفق عليه، وجاء كذلك في كثير من دواوين السنة، والذي في أكثر روايات هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما: «فدخل رجل فصلى»، فاسم الداخل مبهم، إلا أنه جاء عند الترمذي: «رجل كالبدوي».

وهذا نص الحديث في صحيح البخاري: «حدثني إسحاق بن منصورٍ، حدثنا أبو أسامة، حدثنا عبيد الله بن عمر، عن سعيد بن أبي سعيدٍ، عن أبي هريرة: أن رجلًا دخل المسجد فصلى، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد، فجاء فسلم عليه، فقال له: ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع فصلى ثم سلم، فقال: وعليك، ارجع فصل فإنك لم تصل قال في الثالثة: فأعلمني، قال: إذا قمت إلى الصلاة، فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة، فكبر واقرأ بما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تستوي قائمًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»[1].

فالداخل رجل مبهم لم تذكر رواية البخاري ولا غالب كتب السنة اسمه، إلا أنه جاء عند الترمذي «رجل كالبدوي»[2] على التشبيه، وجاء في مستدرك

---

(١) **صحيح البخاري** ٨: ١٣٥ حديث (٦٦٦٧).

(٢) **سنن الترمذي** ٢: ١٠٠ ت أحمد محمد شاكر وآخرين حديث (٣٠٢).

الحاكم[١]، والمعجم الكبير للطبراني[٢]: «رجل من الأنصار».

فلم أجد رواية واحدة ذكرت أنه أعرابي أو شبهته بالأعرابي، ومع ذلك وجدنا من كبار الأئمة من صرح أن هذا المسيء «أعرابي»، ويظهر أن هذا التصريح مبني على التشبيه بالبدوي الوارد في رواية الترمذي مع ما استقر في الأذهان من أن الأعرابي لا تعني إلا البدوي، فاستعملها هؤلاء الأكابر من هذا الباب الذي فتحه أهل اللغة بغير مفتاحه.

والقول بأن هذا الرجل «أعرابي» بمعنى «بدوي» يخالف رواية الحاكم والطبراني التي فيها التصريح بأنه «رجل من الأنصار»، ولكن لكثرة ما جاء في الأحاديث من تلبس «الأعراب» بالأفعال التي تشير إلى الجهل وعدم المعرفة صارت الأذهان ميالة إلى نسبة مثل هذا الخبر إليهم.

وممن صرح بأن هذا الرجل «أعرابي» الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام وذلك في قوله: «وأما السنة: فحديث النبي ﷺ الذي يحدث به رفاعة في الأعرابي الذي صلى صلاةً فخففها فقال له رسول الله ﷺ: ارجع فصل، فإنك لم تصل، حتى فعلها مرارًا، كل ذلك يقول: فصل، وهو قد

(١) **المستدرك على الصحيحين** للحاكم النيسابوري ١:٣٦٨ حديث (٨٨٤).

(٢) **المعجم الكبير** للطبراني ٥:٣٩ حديث (٤٥٢٨).

رآه يصليها، أفلست ترى أنه مصلٍّ بالاسم، وغير مصلٍّ بالحقيقة»[١].

وقد صرح بمثل ذلك الإمام البغوي فقال: «قلت: في الحديث دليلٌ على وجوب إقامة الصلب في الركوع والسجود، وإليه ذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وقالوا: لو ترك إقامة الصلب في الركوع، والسجود، والطمأنينة فيهما، وفي الاعتدال عن الركوع والسجود، فصلاته فاسدةٌ، لقول النبي ﷺ للأعرابي في حديث أبي هريرة ورفاعة: ارجع فصل فإنك لم تصل، ثم قال له: اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تستوي قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا»[٢].

وجاء مثل هذا التصريح عند عالم محقق آخر وهو الإمام الزيلعي، فرأيناه يقول في تخريجه لأحاديث كتاب الهداية: «الحديث الثالث والعشرون: روي أن النبي ﷺ، قال لأعرابي أخف الصلاة: «قم صل، فإنك لم تصل»[٣].

وقد جاء مثله عند الحافظ ابن حجر في كتاب الدراية[٤] وهو اختصار وتعقبات يسيرة لعمل الزيلعي في نصب الراية، ولم يتعقب الحافظ المؤلف في قوله

---

(١) **الإيمان** لأبي عبيد القاسم بن سلام بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني ص ٤٢.

(٢) **شرح السنة** للبغوي، ت شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش ٣:٩٨.

(٣) **نصب الراية لأحاديث الهداية** للزيلعي، ت محمد عوامة ١:٣٧٨.

(٤) انظر: **الدراية في تخريج أحاديث الهداية** للحافظ ابن حجر، ت السيد عبد الله هاشم اليماني المدني ١:١٤٣.

«أعرابي»، على الرغم من أن الحافظ ابن حجر ممن حقق اسم هذا الصحابي ورجح أنه أحد الأنصار وأن قول الراوي «كالبدوي» ليس إلا من باب التشبيه[١].

وتصريح هؤلاء الأئمة جعل كثيرًا من الوعاظ والدعاة والكتاب وجملة المستشهدين بهذا الحديث يصنفون هذا الخبر في جملة الأخبار التي يستشهد بها على قلة علم «الأعراب» وضعف معرفتهم بالسنة، مع أننا يجب ألا ننسى أن «الأعراب» الواردين في الأحاديث والآثار لا تعني عند الجميع إلا «البادية» وهو خطأ أثقل الكتب والأفهام قديمًا وحديثًا.

والسؤال هنا من هذا الصحابي الوارد في الخبر؟ وهل هو أنصاري أم أعرابي أم بدوي؟

يجب أن نعلم أولًا أن نسبة هذا الصحابي إلى «الأعراب» خطأ يخالف معناها عند اللغويين، ويخالف معناها الحقيقي الذي تعرفه العرب ويعرفه الصحابة الكرام، ولذلك لم يرد في الخبر «كالأعرابي»، ويجب أن نعلم أن تشبيهه بالبدوي لا يلزم منه أنه يشبه الأعراب لأنهما شيئان مختلفان كما ظهر لنا فيما تقدم.

حقق ابن بشكوال في كتابه غوامض الأسماء المبهمة اسم هذا الصحابي فقال: «الرجل المذكور اسمه خلادٌ. الحجة في ذلك ما قرئ على شيخنا أبي محمدٍ وأنا أسمع عن أبيه رحمه الله قال أنبأ أبو القاسم بن غيثٍ قال ثنا

(١) انظر **الإصابة في تمييز الصحابة** للحافظ ابن حجر ٢: ٢٨٤، وفتح الباري ٢: ٢٧٧ وما بعدها.

عبد الله بن يوسف قال ثنا ابن وضاحٍ ثنا ابن أبي شيبة ثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرٍو عن علي بن يحيى بن خلادٍ عن رفاعة بن رافع أن خلادًا دخل المسجد ورسول الله ﷺ أظنه قال جالسٌ فصلى منه قريبًا ثم أتى النبي ﷺ فسلم عليه فقال له رسول الله ﷺ أعد صلاتك فإنك لم تصل. . . »[١].

وهو يوافق ما حققه الحافظ بعد ذلك في الفتح والإصابة في الموضعين اللذين سبقت الإشارة إليهما، فهذا الصحابي الذي يوصف في كتب الفقه بـ«المسيء صلاته» هو خلاد بن رافع الأنصاري رضي الله عنه وهو من البدريين بل هو من شهداء بدر.

فرأينا من كل ما تقدم أن كثيرًا من الأحاديث التي يستشهد بها الناس قديمًا وحديثًا، ويجعلونها في إطار ذهني واحد عنوانه جفاء سكان البادية وجهلهم، لا علاقة لها بالبدو ولا البداوة، وأن الموصوفين فيها بالأعراب صحابة كرام منهم القرشي الأعرابي حقيقة، ومنهم الأنصاري الموصوف خطأً بالأعرابية.

وما قدمناه لا يعني أنه ليس في «الأعراب» المذكورين في كتب السنة صحابة كرام من أهل البادية، بل إن الأخبار قد نصت على أعداد منهم قد وصفوا بالأعرابية، كما أشرنا إليه سابقًا.

---

(١) **غوامض الأسماء المبهمة** لابن بشكوال، ت عز الدين علي السيد ومحمد كمال الدين عز الدين ٢: ٥٨٣.

الأعرابُ الجفاة بين الحاضرة والبادية

تقدم أن الوصف بالأعرابية يعني النقص في الدين، وأن أصل هذا قائم في مقابلة الهجرة مع رسول الله ﷺ مما ترتب عليه أن حُرِم أولئك الأعراب الانتفاع من تعليم رسول الله ﷺ وتوجيهه المباشر والتأدب بآداب الإسلام.

والجفاء والأعرابية قرينان كما تصرح بذلك بعض الأحاديث، ومن ذلك ما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده قال: «حدثنا أبو الحارث سريج بن يونس، حدثنا إسماعيل بن مجالدٍ، عن مجالدٍ، عن الشعبي، عن جابرٍ، قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ فقال: ثيابنا في الجنة ننسجها بأيدينا؟ فضحك أصحاب النبي ﷺ، فقال الأعرابي: لم تضحكون من جافٍ يسأل عالمًا؟ فقال رسول الله ﷺ: صدقت يا أعرابي، ولكنها ثمراتٌ»[(١)].

---

(١) **مسند أبي يعلى الموصلي**، ت حسين سليم أسد ٤: ٤٠ حديث (٢٠٤٦).

فأظهر صفات الأعرابي في هذا الحديث أنه جافٍ، والجافي هنا تعني قليل العلم، وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث «جاهل يسأل عالمًا»، وقد جاء في رواية أخرى طويلة عن عبد الله بن عمرو تضمن آخرها الحديث السابق قوله: «جاء أعرابيٌّ عُلويٌّ جريءٌ جافٍ فقال: يا رسول الله، أخبرنا عن الهجرة...»[(١)]، وهنا من صفات الأعرابي الجهل والجرأة، وقوله: عُلويٌ نسبه إلى عالية المدينة وفيها قرى للأنصار، أو عُليا نجد وهي بلاد قيس.

وقد جاء في حديث آخر في مسند أبي داود الطيالسي زيادة تخصيص لنوع الجهل المسمى جفاءً، فقد وصف صفوان بن عسال المرادي ﷺ أعرابيًّا فقال: «كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فناداه رجلٌ كان في آخر القوم بصوتٍ جهوريٍ أعرابيٌّ جلفٌ جافٍ فقال: يا محمد يا محمد، فقال له القوم: مه، إنك قد نهيت عن هذا، فأجابه رسول الله ﷺ نحوًا من صوته هاؤم فقال: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال: فقال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحب»[(٢)].

وفي هذا الحديث تخصيص للجهل بجهل السنة وما يجب من حق رسول الله ﷺ فجفاء الأعرابي هنا عدم معرفة

---

(١) **مسند أبي داود الطيالسي**، ت محمد بن عبد المحسن التركي ٤: ٣٥ حديث (٢٣٩١).

(٢) **سنن الترمذي** ٥: ٥٤٦ جزء من حديث (٣٥٣٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وقال الألباني: «حسن الإسناد».

توجيهات الشرع في معاملة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

في سياقات أحاديث الأعراب نجد إما التصريح بأن هذا الأعرابي من أهل البادية، وإما ما يمكن أن يفهم من خلاله أنه بدوي.

ونجد كذلك الوصف بالأعرابية أو الجفاء أو بهما معًا لغير البدوي ولذات العلة وهي الجهل بالسنة وعدم معرفة هدي الرسول ﷺ.

فقد جاء في صحيح مسلم قال: «وحدثنا محمد بن أبي بكرٍ المقدمي، حدثنا حماد بن زيدٍ، عن أيوب، عن نافعٍ، حدثني نبيه بن وهبٍ، قال: بعثني عمر بن عبيد الله بن معمرٍ، وكان يخطب بنت شيبة بن عثمان على ابنه، فأرسلني إلى أبان بن عثمان وهو على الموسم، فقال: ألا أراه أعرابيًّا، إن المحرم لا ينكح، ولا ينكح، أخبرنا بذلك عثمان، عن رسول الله ﷺ»[(١)].

والمنسوب هنا للأعرابية، وللجفاء والأعرابية في بعض روايات هذا الحديث قرشي تيمي والده ابن عم طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وهو أمير كبير الشأن من أشراف قريش

---

(١) **صحيح مسلم** ٢:١٠٣٠ حديث ٤٢ ـ (١٤٠٩) وهو في **مسند أحمد**، ١:٥٤٩ حديث (٥٣٥) وفي **المسند المستخرج على صحيح مسلم** لأبي نعيم ٤:٧٦ حديث (٣٢٧٨) وفي **السنن الكبرى** للبيهقي ٧:٣٤٢ حديث (١٤١٩٩) جميعها «أعرابيًّا»، وجاء في **مسنخرج أبي عوانة** ٢:٢٦٧ حديث (٣٠٨٢) وفي **المقصد العلي** للهيثمي ٢:٣٤٦ حديث (٧٨٥) «أعرابيًّا جافيًا».

وشجعانها وأجوادها ولي البصرة لابن الزبير لا علاقة له بالبادية ولا صلة[١].

وجاء في بعض روايات هذا الحديث في صحيح مسلم ومسند أحمد وغيرهما «عراقيًّا جافيًا»[٢]، وقد أشار بعض شراح صحيح مسلم إلى أن رواية «عراقيًّا» قد تكون غلطًا جاء في بعض النسخ[٣]، وأن الصواب قد يكون «أعرابيًّا» كما في نسخ أخرى.

وأحسب أن ورود هذا اللفظ في أحاديث عند غير مسلم يقلل من احتمال الخطأ في نسخ مسلم، ثم إن وصف أهل العراق بالجفاء والجهل بالسنة جاء في آثار منقولة عن بعض الصحابة والتابعين وهي منثورة في كتب السنة، ومنها حديث ابن عمر الذي جاء في المخلصيات، وجاء نحوه في صحيح البخاري قال المخلص: «أخبرنا محمدٌ قال: حدثنا يحيى: حدثنا عبد الجبار: حدثنا أبو سعيدٍ مولى بني

---

(١) انظر ترجمته في مظانها من كتب التراجم ومنها **سير أعلام النبلاء** ٤:١٧٢.

(٢) **صحيح مسلم** ٢:١٠٣١ حديث ٤٥ ـ (١٤٠٩) و**مسند أحمد** ١:٥٢٦ حديث (٤٩٢) و**مستخرج الطوسي على جامع الترمذي** ٤:٦٤ و**المسند المستخرج على صحيح مسلم** لأبي نعيم ٤:٧٧ حديث (٣٢٨١) و**إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة** للبوصيري ٤:١٠٥ حديث (٣٢٤٠).

(٣) قال الإمام النووي في **شرحه على مسلم** ٩:١٩٦ وما بعدها: «(فقال له أبان لا أراك عراقيًّا جافيًا) هكذا هو في جميع نسخ بلادنا عراقيًّا وذكر القاضي أنه وقع في بعض الروايات عراقيًّا وفي بعضها أعرابيًّا قال وهو الصواب أي جاهلًا بالسنة والأعرابي هو ساكن البادية قال وعراقيًّا هنا خطأٌ إلا أن يكون قد عرف من مذهب أهل الكوفة حينئذٍ جواز نكاح المحرم فيصح عراقيًّا أي آخذًا بمذهبهم في هذا جاهلًا بالسنة والله أعلم» وانظر كذلك **شرح السيوطي** على مسلم ٤:٢٠.

هاشم: حدثنا قرة، عن حميد بن هلالٍ، عن أبي بردة، عن ابن عمر قال: لقي أبي أباك فقال: أيسرك أنك خرجت من عملك كفافًا خيره بشره وشره بخيره لا لك ولا عليك؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين، لقد قدمت البصرة وإن الجفاء فيهم لفاشٍ، قال: فعلمتهم القرآن والسنة، وغزوت بهم في سبيل الله، وإني لأرجو بذلك فضيلةً، قال: لكني وددت أني خرجت من عملي خيره بشره وشره بخيره كفافًا لا لي ولا علي، وخلص لي عملي مع رسول الله ﷺ. قال: إن أباك كان خيرًا من أبي»[١].

فالجفاء هنا الجهل بالقرآن وسنة رسول الله ﷺ، وهو وصف لأهل البصرة التي كانت هي والكوفة حاضرتي العراق.

وقد وُصِف أهل البصرة بالأعرابية على لسان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما نقل ذلك ابن سعد في طبقاته، قال ابن سعد عن أنس رضي الله عنه: «قال: بعثني الأشعري إلى عمر فقال لي عمر: كيف تركت الأشعري؟ فقلت له: تركته يعلم الناس القرآن. فقال: أما إنه كيسٌ ولا تسمعها إياه. ثم قال لي: كيف تركت الأعراب؟ قلت: الأشعريين؟ قال: لا بل أهل البصرة. قلت: أما إنهم لو سمعوا هذا لشق عليهم. قال: ولا تبلغهم فإنهم أعرابٌ.

---

(١) **المخلصيات** لمحمد بن عبد الرحمن المخلص، ت نبيل سعد الدين جرار ٣٥٩ حديث ٦٠٤ ـ (٢٣٨) ونحوه في **صحيح البخاري** ٥:٦٣ حديث (٣٩١٥).

إلا أن يرزق الله رجلًا جهادًا. قال وهب بن جريرٍ في حديثه: في سبيل الله»[١].

فالجفاء من لوازم الأعرابية بمعناها في زمن رسول الله ﷺ، فالأصل في أعراب زمنه ﷺ الجفاء الذي يعني الجهل بأحكام الإسلام ومقاصده، وليس شرطًا أن يكون الأعرابي بدويًّا كما تبين لنا.

جاء الوصف بالجفاء والجهل في دين الله في كلام سلف هذه الأمة رديفًا للأعرابية لأنه كان من لوازمها، فإذا كان الشخص المراد وصفه بالجفاء والجهل من المهاجرين فلا يمكن أن يقال في حقه أعرابي أبدًا[٢]، وإنما قد يقال بأن فيه أعرابية، لأن الأعرابي نقيض المهاجر ولذلك وجدنا ابن عباس يصف ابن الزبير بالجلف الجافي ولم يقل: أعرابي؛ لأن ابن الزبير من المهاجرين.

فقد جاء في صحيح مسلم: «أن عبد الله بن الزبير، قام بمكة، فقال: إن ناسًا أعمى الله قلوبهم، كما أعمى أبصارهم، يفتون بالمتعة، يعرض برجلٍ، فناداه، فقال: إنك لجلفٌ جافٍ، فلعمري، لقد كانت المتعة تفعل على عهد إمام المتقين ـ يريد رسول الله ﷺ ـ فقال له ابن الزبير: فجرب بنفسك، فو الله، لئن فعلتها لأرجمنك بأحجارك»[٣].

---

(١) **الطبقات الكبرى** لمحمد بن سعد، ت محمد عبد القادر عطا ٢:٢٦٣.

(٢) ومنه خبر عبد الله بن أبي حدرد وكعب بن مالك الذي سبق ذكره.

(٣) **صحيح مسلم** ٢:١٠٢٦ حديث ٢٧ ـ (١٤٠٦).

وجاء في مستخرج أبي عوانة وغيره[١] التصريح بأن الرجل المعرض به عبد الله بن عباس، فابن عباس يصف ابن الزبير رضي الله عنهما أجمعين بالجلف الجافي وهو أمير مكة وينسبه بذلك إلى الجهل بالسنن، ولا يصفه بالأعرابي والسبب في ذلك أنه مهاجر وابن مهاجر.

أما عتاب بن أسيد العبشمي الأموي رضي الله عنه الذي أسلم يوم الفتح وأمَّرَه رسول الله ﷺ على مكة عند خروجه إلى حنين[٢]، فقد وصفه أهل مكة بالأعرابي الجافي؛ لأنه لم يكن رضي الله عنه من المهاجرين فقد جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ استعمل عتاب بن أسيد على مكة وكان شديدًا على المريب لينًا على المؤمن وكان يقول والله لا أعلم متخلفًا يتخلف عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق فقال أهل مكة يا رسول الله استعملت على أهل الله عز وجل عتابًا أعرابيًّا جافيًا فقال النبي ﷺ: إني رأيت فيما يرى النائم كأنه أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها حتى فتح له فدخل»[٣].

فعتاب رضي الله عنه يوصف بالأعرابية وهو من بني عبد مناف

---

(١) **مستخرج أبي عوانة ١١ :٢٧٧** حديث (٤٤٩٣) وكذلك في **السنن الكبرى** للبيهقي ٧ :٣٣٣ حديث (١٤١٦٥) وأشار إلى ذلك أيضًا ابن الجوزي في **كشف المشكل من حديث الصحيحين ٤ :١٨٧**.

(٢) انظر **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر ٣ :١٠٢٣.

(٣) **أمالي المحاملي**، رواية أبي مهدي الفارسي ١٩٥ وجاء كذلك عن ابن عباس في **تخريج الزيلعي لأحاديث الكشاف للزمخشري ٢ :٢٨٦**.

سادة مكة في الجاهلية وخلفاء الأمة الإسلامية منذ خلافة عثمان بن عفان إلى سقوط الدولة العباسية، والسبب في ذلك أنه أعرابي على الحقيقة؛ لأنه لا هجرة له ولا احتمال هجرة فيما بعد لانقطاعها بفتح مكة.

وقد وصف بالأعرابية من الصحابة الكرام الذين تأخر إسلامهم إلى ما بعد الفتح كثيرون ومنهم من دلت الأخبار على أنه لم يكن بدويًّا بل منهم من وصف بالملك، فهذا وائل بن حجر الحضرمي رضي الله عنه الذي كان قيلًا من أقيال حضرموت وكان أبوه ملكًا من ملوكهم، والذي جاءت الأحاديث باحتفاء الرسول ﷺ بقدومه وإسلامه وكلها تدل على أنه لم ينتسب إلى البداوة من أي وجه[1]، ومع هذا نجد من كبار السلف من وصفه بالأعرابية فقد جاء في كتاب الآثار لأبي يوسف: «يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة، عن حمادٍ، عن إبراهيم، أنه قال في وائل بن حجرٍ رضي الله عنه: أعرابيٌّ لم يصلِّ مع النبي ﷺ صلاةً، أو رأى قط قبلها، فهو أعلم من عبد الله وأصحابه، حفظ ولم يحفظوا، يعني في رفع اليدين»[2].

فإبراهيم النخعي رحمه الله يصف هذا الصحابي الجليل بالأعرابية التي لا تعني البداوة؛ لأن إسلامه كان بعد الفتح ولم يكن له هجرة وملازمة للرسول ﷺ خلافًا لغيره من

---

(١) انظر **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد** ٦ : ٤٣١ فقد استوعب كثيرًا منها في خبر وفود وائل بن حجر.

(٢) **الآثار** لأبي يوسف، حققه أبو الوفاء المدرس بالمدرسة النظامية، العلمية ٢١.

مهاجري الصحابة وأنصار الرسول الكريم الذين لازموه طويلًا، فهو يرى تقديم قولهم على قوله في رفع اليدين في الصلاة من هذا الوجه.

فالأعرابية التي تعني عدم ملازمة الرسول ﷺ في دار هجرته قرينة الجفاء الذي يعني الجهل بالسنة، ومن كان مهاجرًا ووصف بشيء من الجهل في السنة فإنه يوصف بالجافي لا الأعرابي كما رأينا في حديث ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم.

وقد ورد الجفاء في أحاديث كثيرة لا يمكن قصره فيها على تفسير الجفاء بغلظ الطبع فقط، وسنذكر من هذه الأحاديث ما يتضح به المقصود دون الاستقصاء والاستيعاب لكل ما جاء في ذلك.

قال الإمام أحمد: «حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن طاووسٍ، قال: رأيت ابن عباسٍ، يجثو على صدور قدميه، فقلت: هذا يزعم الناس أنه من الجفاء. قال: هو سنة نبيك ﷺ»[(١)].

وجاء عند البيهقي: «أخبرنا أبو صالح بن أبي طاهرٍ العنبري، أنبأ جدي يحيى بن منصورٍ القاضي، ثنا أحمد بن سلمة، ثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأ محمد بن بكرٍ، أنبأ ابن جريجٍ، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع طاوسًا يقول: قلنا لابنٍ عباسٍ في الإقعاء على القدمين، فقال: هو سنةٌ،

(١) **مسند أحمد** ٥١:٥ حديث (٢٨٥٥).

فقلنا: فإنا نرى ذلك من الجفاء إذا فعله الرجل، فقال: بل هي سنة نبيك محمدٍ ﷺ. رواه مسلمٌ في الصحيح، عن إسحاق بن إبراهيم»[١].

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة قوله: «حدثنا وكيعٌ، عن حريثٍ، عن الشعبي، في الرجل يمسح جبهته قبل أن ينصرف قال: هو من الجفاء وقال الحكم لا بأس به»[٢].

هذه الأحاديث وغيرها كثير ترد فيها لفظة الجفاء بمعنى الجهل بسنة الرسول ﷺ وهديه، لا فرق في ذلك بين بدوي وقروي، ورأينا قبل ذلك كيف وصف بالجفاء حينًا، وبالأعرابية حينًا، وبهما معًا في حين آخر أناس لا صلة لهم بالبادية ولا علاقة.

ولذلك فأهل البادية المنقطعون عن العلم وعن الناس بالكلية مظنة الجفاء بهذا المعنى، وعليه معنى قوله ﷺ كما جاء عند البيهقي: «أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال: أنا أبو جعفرٍ محمد بن محمد بن عبد الله البغدادي، نا يحيى بن عثمان بن صالحٍ، نا يحيى بن عبد الله بن بكيرٍ، نا يحيى بن صالحٍ الأيلي، عن إسماعيل بن أمية، عن عطاءٍ، عن عبد الله بن عباسٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: من علق الصيد غفل، ومن لزم البادية جفا، ومن أتى السلطان افتتن. تفرد به يحيى بن صالحٍ بإسناده»[٣].

---

(١) **السنن الكبرى** للبيهقي ٢: ١٧١ حديث (٢٧٣٢).

(٢) **مصنف ابن أبي شيبة** ١: ٤٠٩ حديث (٤٧١٥).

(٣) **شعب الإيمان** للبيهقي، ت عبد العلي عبد الحميد حامد ١٢: ٢٧ =

وقد جاء في أحاديث وروايات أخرى «من سكن البادية جفا» وجاء «من بدا جفا»، وأعادها أهل العلم إلى معنى الانقطاع التام عن الناس الذي يورث الجهل وعدم تعلم أحكام الدين ومعرفة السنن.

أما ما يطلقه بعض اللغويين من أن المعنى غلظ الطبع وقسوة القلب فهو عندي تابع لمعنى الجهل في الدين وليس معنى قائمًا بذاته في لفظ «الجفاء»، والأحاديث التي قدمناها ـ وغيرها كثير ـ وكذلك استعمال هذا اللفظ في سياقات كثيرة مروية عن الفصحاء يشير إلى ذلك، أما استقلال «الجفاء» بمعنى غلظ الطبع والقسوة فقد وجد واستعمل ولا شك، ولكنه غير منفك عن الجهل بحال، واستعماله جاء متأخرًا عن الاستعمال الأول.

فإذا عدنا ثم تدرجنا مع الزمن وتفحصنا النصوص المروية من كلام الفصحاء لا النصوص التي وصفهم بها المتأخرون فإننا سنجد أن الأعرابية التي من لوازمها الجفاء استعملت في كلام أفضل الخلق وفي كلام الفصحاء بمعنى الجهل بدين الله، ومن ذلك ما جاء في حديث الحسن البصري الذي رواه البيهقي قال: «أخبرناه أبو عبد الله الحافظ في التاريخ، قال: أنا أبو الفضل محمد بن إبراهيم المذكر، قال: نا أحمد بن سلمة، قال:

= حديث (٨٩٥٥) وجاء عن ابن عباس بأسانيد أخرى ضعفها بعض أهل العلم «من سكن البادية. . .» ومثلها «من بدا. .»، وجاءت اللفظتان عن أبي هريرة في أسانيد ضعف أكثرها، ومثلها حديث البراء بن عازب ﵁، وقد تكلم عن هذه الأحاديث شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد في مواضعها.

نا محمد بن أسلم، قال: نا أبو نعيم، عن مباركٍ، عن الحسن، قال: دخل الزبير بن العوام على رسول الله ﷺ، فقال: جعلني الله فداءك، فقال النبي ﷺ: أما تركت أعرابيتك؟ أما علمت أن المسلم لا يفدي المسلم؟. فهذا منقطعٌ، وإن صح فهو محمولٌ على التنزيه والله أعلم، بدليل ما مضى»[(١)].

فإن صح الحديث فحبيبنا ﷺ ينسب الزبير رضي الله عنه في هذا الأمر إلى أعرابيته السابقة؛ أي حال الجهل قبل الهجرة والتهذب بعلم رسول الله ﷺ وملازمته، والدليل على هذا المعنى قوله ﷺ بعد ذلك: «أما علمت. . .» فأعرابيته المقصودة ترادف الجفاء[(٢)] بمعنى عدم العلم بهذا الحكم الشرعي، ولا نحتاج أن نذكر بأن الزبير رضي الله عنه لم يكن قبل إسلامه ولا بعده من سكان البادية، فهذه الأعرابية التي يشير إليها الرسول ﷺ ليست البداوة قطعًا.

ثم بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد الفتوحات الإسلامية في العراق والشام وانتقال كثير من الصحابة إليهما نجد هذا الخبر الذي يشير إلى أن معنى الأعرابية ـ وهي قرينة الجفاء ـ لا يزال محتفظًا بمعنى الجهل بالدين والقرآن وهدي رسول الله ﷺ، ففي خبر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وفيما رآه في بعض سفراته من اختلاف بعض أهل الأمصار

---

(١) **شعب الإيمان** للبيهقي ١١: ٢٥٣.

(٢) قال ابن جرير: «والمعروف من قيل القائل إذا قال: إن فلانًا لم يترك أعرابيته بعد فإنه إنما نسبه إلى الجفاء» **تهذيب الآثار**، ت محمود محمد شاكر ٣: ١١٢.

في قراءة القرآن قال ابن الأثير: «فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ، وكثيرٌ من التابعين. وقال له أصحاب ابن مسعودٍ: ما تنكر؟ ألسنا نقرأه على قراءة ابن مسعودٍ؟ فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنما أنتم أعرابٌ فاسكتوا فإنكم على خطأٍ»[1].

فحذيفة رضي الله عنه ومن معه من الصحابة والتابعين يصفون أولئك القراء من أهل الكوفة بأنهم أعراب، وجلي أنهم لا ينسبونهم إلى البداوة وإنما ينسبونهم إلى جهل قراءة رسول الله ﷺ.

وإذا تجاوزنا عصر الرسالة ثم عصر الصحابة إلى زمن التابعين لنرى استعمالهم لهذا اللفظ سنجدهم استعملوه كذلك بمعنى الجهل في الدين والحال التي كانت لهم قبل معرفة أحكام الإسلام، فهذا بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري يصف دار الأشعريين في اليمن بالأعرابية وهي قرى لا بادية، ويصف الحيرة وهي عاصمة دولة المناذرة بالأعرابية وذلك فيما نقله البلاذري من جدال جرى بينه وبين خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقري التميمي في حضرة عمر بن يوسف الثقفي الأمير الشهير، قال البلاذري بعد أن نقل كلامًا جرى بينهما: «فقال خالد ليوسف: أيها الأمير، هذا أحمق الناس والله ما يدري أين دار أعرابيته من دار هجرته، فقال بلال: بلى والله

(١) **الكامل في التاريخ** لابن الأثير، ت عمر عبد السلام تدمري ٢: ٤٨٢.

إن دار أعرابيتي اليمن ودار هجرتي المدينة، وأخبرك عن دار أعرابيتك وهجرتك، أما دار أعرابيتك فالحيرة وأما دار هجرتك فالبصرة»[(١)].

فبلال هنا ينسب قرى أجداده من الأشعريين إلى الأعرابية مشيرًا بذلك إلى حالهم التي كانت قبل معرفة أحكام الإسلام مفتخرًا أن دار هجرتهم وعلمهم كانت مدينة رسول الله ﷺ، وينسب خالدًا إلى أن دار أعرابيته الحيرة أي الحال التي كان عليها أجداده قبل إسلامهم، وكأنه ينفيه عن دار قومه من بادية بني سعد، وقد تكرر هذا من بلال في سياق الخبر على وجه اللمز لخالد.

ونلحظ هنا أمرين، الأول: أن الأعرابية تعني الجهل في دين الإسلام، والثاني: أن بلالًا لم يجعل أعرابية أجداد خالد وعشيرته من بني سعد سكنى البادية مع أنهم كانوا أشد قبائل تميم بداوة، بل ربط أعرابيته بالحيرة التي كانت أشهر مدن العرب، وهذا مما يدل على أن الأعرابية إلى زمن صغار التابعين وتابعي التابعين لا تعني عند أحفاد الصحابة إلا المعاني الإسلامية الأولى، فليس من معانيها البادية ولا سكنى الصحراء.

(١) **أنساب الأشراف** للبلاذري، ت سهيل زكار ورياض الزركلي ٩: ٥٨.

«الأعراب» في مَهَبِّ التغيرات الدلالية

رأينا فيما تقدم أن الجفاء والأعرابية متلازمان، وتبين لنا أن الجفاء لا يعني في أصل استعماله إلا الجهل بالدين، وهو السمة الأولى للأعراب، وتبين لنا أن الأعراب تطلق على أهل القرى كما تطلق على البوادي، وأن الصفات الرديئة التي لحقت بالجفاء إنما جاءت من الجهل بدين الله وعدم العمل بالسنن التي سنها رسول الله ﷺ، وظهر لنا وجه ذم الأعراب بها وأنها قائمة على الاستعمال الأول لـ«الأعراب» في زمن رسول الله ﷺ قبل فتح مكة.

فالأعراب في الاصطلاح الشرعي وصف مضاد للمهاجرين وقد أطلق على أعداد كبيرة من مسلمي عصر الرسالة، ومن هؤلاء صحب كرام كانوا أقل فضلًا من غيرهم من الصحابة، وهذا الوصف ليس له علاقة ببداوة ولا قروية إذ ليستا معيارًا شرعيًّا يتحدد به قرب الناس وبعدهم من الله.

فلزم من ذلك أن يكون هذا الوصف والتأخر في الفضل مربوطًا بالأعمال التي جعلها الله قربات يتقرب بها العبد إلى ربه، فمن بادر بالأعمال الصالحة وأكثر منها ارتقى بها عند الله ومن تأخر فيها وتكاسل تأخر بقدر تأخره فيها.

وقد علمنا أن الهجرة كانت قبل الفتح من أعظم الأعمال وأجلها، وأن تركها بعد وجوبها كان من أعظم المحرمات وأقبحها، ولذلك ذم الله الأعراب تاركي الهجرة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ [الأنفال ٧٢] ومنع المهاجرين من موارثتهم رغم إسلامهم.

وما قدمناه هو وجه التضاد الحقيقي بين المهاجري والأعرابي، التضاد الذي استشعره ابن الأثير وتوقف عن تفسيره، وليس الوجه المتوهم الذي فهمه بعض المتأخرين وجعلوه دليلًا على أن «الأعراب» تعني البادية و«العرب» تعني أهل الأمصار!

والحق أن التضاد بين اللفظتين استمر ولم يتوقف برغم ما طرأ على الأولى من التغيرات، فالهجرة قبل فرض القتال لم تكن تحمل من المعاني إلا الانتقال إلى المدينة مع رسول الله ﷺ، ولكنها استلحقت بعد ذلك معنى إضافيًا فصارت تعني القتال كذلك ويفهم هذا من مثل قوله ﷺ: «وإذا دعوا أجابوا» وقوله: «فيجيب إذا دعي»؛ لأن الدعوة هنا تعني دعوة طلب النصرة.

وكان الذين يخرجون في سرايا الرسول ﷺ قبل بدر من المهاجرين خاصة، ولما جاء الأمر بالقتال كان فرض عين على المنقطعين منهم للإقامة مع رسول الله ﷺ، وفرض كفاية على غيرهم من المسلمين.

ولما أعز الله الإسلام وأظهره بعد فتح مكة وقال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم

فانفروا»[١]، فاز المهاجرون باسم الهجرة والأنصار بالنصرة، ولم يعد بمقدور أحد أن يدخل في اسم المهاجرين من باب الانتقال إلى المدينة، والأحاديث في هذا معروفة مشهورة، ولأن المهاجرين هم من فرض عليهم القتال ابتداء، وكان عامتهم متفرغين عن كل عمل إلا نصرة الرسول ﷺ والتأهب الدائم لأوامره والمضي في سراياه فلم يكن لهم ضياع ولا صنائع ولا عمل إلا القتال؛ لذلك كانوا هم أصحاب الفيء، ولهذا ثبت اسم المهاجرين بعد الفتح على من هاجروا وكانوا هم المقاتلين أيضًا، وثبت اسم «الأعراب» على من لم تكن له هجرة وإن نزل المدينة بعد الفتح، وأصبح من هؤلاء الأعراب مقاتلون، ولكنهم غير مفرغين للقتال كالمهاجرين، وليس لهم في الفيء نصيب وليس لهم إلا سهم المقاتل إذا قاتلوا، فقابلوا المهاجرين في عدم الهجرة وقابلوهم في أمر القتال والنصيب من الفيء.

قال الماوردي عن فرض الجهاد: «والصحيح عندي أن ابتداء فرضه كان على الأعيان في المهاجرين وعلى الكفاية في غيرهم لأن المهاجرين انقطعوا إلى رسول الله ﷺ لنصرته فتعين فرض الجهاد عليهم، ولذلك كانت سرايا رسول الله ﷺ قبل بدرٍ بالمهاجرين خاصةً، وما جاهد عليه الأنصار قبل بدرٍ، فتعين الفرض على من ابتدئ به، ولم يتعين على من لم يبتدأ به ومن أجل ذلك سمى أهل الفيء

(١) **صحيح البخاري** ٤:٢٣ حديث (٢٨٢٥).

من المقاتلة مهاجرين، وجعل فرض العطاء فيهم وسمى غيرهم وإن جاهدوا أعرابًا»[(١)].

وقال في موضع آخر: «ولا يجوز أن يصرف الفيء في أهل الصدقات، ولا تصرف الصدقات في أهل الفيء، ويصرف كل واحدٍ من المالين في أهله، وأهل الصدقة من لا هجرة له، وليس من المقاتلة عن المسلمين، ولا من حماة البيضة، وأهل الفيء هم ذوو الهجرة الذابون عن البيضة، والمانعون عن الحريم، والمجاهدون للعدو، وكان اسم الهجرة لا ينطلق إلا على من هاجر من وطنه إلى المدينة لطلب الإسلام، وكانت كل قبيلةٍ أسلمت وهاجرت بأسرها تدعى البررة، وكل قبيلةٍ هاجر بعضها تدعى الخيرة، فكان المهاجرون بررة وخيرة، ثم سقط حكم الهجرة بعد الفتح وصار المسلمون مهاجرين وأعرابًا، فكان أهل الصدقة يسمون على عهد رسول الله ﷺ أعرابًا، ويسمى أهل الفيء مهاجرين، وهو ظاهرٌ في أشعارهم كما قال فيه بعضهم [من السريع]:

قد لفها الليل بعصلبي
أروع خراجٍ من الدوي
مهاجرٍ ليس بأعرابي»[(٢)]

وهذه التسمية استمرت في عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم بل إلى ما بعد الراشدين، قال الماوردي:

---

(١) **الحاوي الكبير** للماوردي ١٤: ١١٢.

(٢) **الأحكام السلطانية** للماوردي، نشر دار الحديث ٢٠٣.

«فأما الأعراب فالمراد بهم من لم يثبت في ديوان الجيش، ولا التزم ملازمة الجهاد ولكن يغزو إذا أراد ويقعد إذا شاء، فهؤلاء هم المسمون أعرابًا سواء كانوا عربًا أو عجمًا فيعطى هؤلاء إذا غزوا من الصدقات من سهم سبيل الله ما يعينهم على غزوهم ولا يعطون من مال الفيء شيئًا، فإن دخلوا في أهل الفيء وأثبتوا أنفسهم في الديوان والتزموا الجهاد معهم، إذا جاهدوا صاروا في عدد الجيش ومن جملة المقاتلة فيفرض لهم في عطاء أهل الفيء ويخرجوا من عداد أهل الصدقة ويحرموا ما كانوا يعطوه منها كي لا يجمعوا بين مال الصدقة ومال الفيء؛ لأن رسول الله ﷺ قد ميز أهل الصدقة من أهل الفيء في أيامه وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده فصار الغزاة ضربين: أهل صدقةٍ وهم ما ذكرنا. وأهل فيءٍ وهم من وصفنا»[(١)].

فكل مقاتل متطوع غير مثبت في ديوان الجيش سواء كان عربيًّا أو أعجميًّا يسمى أعرابي كما بين ذلك الماوردي وغيره من العلماء[(٢)]، فالأعراب في هذه المرحلة من تاريخ المسلمين كان اسمًا لهذه الفئة من المقاتلين، ويقابله «المهاجرون» الذي يطلق على المقاتلين المثبتين في ديوان الجيش، يقول الماوردي: «وقد كان المتطوعة يسمون أعرابًا، ويسمى المقاتلة مهاجرين»[(٣)]

---

(١) **الحاوي الكبير** للماوردي ٨: ٤٤٧.

(٢) أنظر **بحر المذهب** للروياني، ت طارق فتحي السيد ٦: ٢٧٩.

(٣) **الحاوي الكبير** للماوردي ٨: ٤٤٣.

والماوردي ينقل تسمية هذا الضرب من متطوعة الغزاة الذين لا يعطون من الفيء بـ«الأعراب» عن الأمام الشافعي فيقول: «والضرب الثاني: هم أهل الصدقات وهم الذين لا أرزاق لهم إن أرادوا غزوًا وإن لم يريدوا قعدوا وقد سماهم الشافعي أعرابًا فهم غزاة أهل الصدقات يجوز أن يعطوا منها مع الغنى والفقر»[(١)].

والإمام الشافعي ينقل هذا الاسم والحكم عن الذين سبقوه من أهل العلم فيقول: «والذي أحفظه عن أهل العلم أن الأعراب لا يعطون من الفيء»[(٢)].

وهذا التقسيم للغزاة نجد شاهده في فعل الرسول ﷺ وفي تقسيم غزاة الصحابة في حياته صلوات الله عليه وسلامه بعد فتح مكة خاصة، ففي حديث غزوة تبوك ـ وهي في السنة التاسعة ـ وفي بعثه ﷺ إلى أكيدر دومة يرسل سريتين من المهاجرين والأعراب فيجعل أبا بكر على المهاجرين وخالدًا على الأعراب رضي الله عنهم أجمعين قال البيهقي: «وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال: حدثنا أبو العباس: محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكيرٍ، عن سعد بن أوسٍ القيسي، عن بلال بن يحيى، قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكرٍ رضي الله عنه على المهاجرين إلى دومة الجندل، وبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه على الأعراب معه، وقال: انطلقوا فإنكم ستجدون أكيدر

(١) **الحاوي الكبير** للماوردي ٨: ٥١٢.

(٢) **الأم** للشافعي ٤: ١٦٣.

دومة الجندل يقتنص الوحش، فخذوه أخذًا فابعثوا به إلي ولا تقتلوه وحاصروا أهلها . . .»[١].

وقال الطبراني في خبر بعثه ﷺ عليًّا وخالدًا رضي الله عنهما في السنة العاشرة إلى اليمن: «حدثنا الفضل بن هارون، ثنا منصور بن أبي مزاحم، ثنا أبو شيبة، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباسٍ، بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد وعليّ بن أبي طالبٍ إلى اليمن فاستعمل عليًا على المهاجرين، واستعمل خالدًا على الأعراب قال: وإن كان قتالٌ فعليٌّ على جماعة الناس»[٢].

وفي خبر غزوة ذات السلاسل[٣] كما جاء في المسند:

---

(١) **دلائل النبوة** للبيهقي ٥ :٢٥٣ وقد وصله ابن عساكر في **تاريخ دمشق** ٩ :١٩٩ نقلًا عن ابن منده فجاء عن بلال بن يحيى عن حذيفة رضي الله عنه، وقد ذكر ذلك السيوطي في **الخصائص** ١ :٤٦٣ فقال: «وأخرجه ابن مندة في الصحابة من طريق بلال بن يحيى عن حذيفة موصولًا». وما ذكره السيوطي هنا لم أجده في كتاب معرفة الصحابة المطبوع لابن مندة.

(٢) **المعجم الكبير** للطبراني ١١ :٣٩٥ حديث (١٢١٠٩). ورواه ابن شاهين في جزء من حديث ابن شاهين ٤٣ حديث (٣١) ورواه البزار في **مسنده** ١١ :١٦٤ حديث (٤٩٠٠) عن مجاهد عن ابن عباس وفيه «واستعمل على المهاجرين والأنصار علي».

(٣) يتأرجح صريح قول أهل المغازي بين أن هذه الغزوة كانت في السنة السابعة أو الثامنة والقول الأشهر أنها في جمادى الآخرة من السنة الثامنة، وعند النظر فإن هناك مرجحات كثيرة تشير إلى أنها متأخرة عن هذا التاريخ وأنها كانت بعد الفتح ـ ربما بأكثر من السنة ـ منها أن الأحاديث الواردة فيها تؤكد أنها كانت في شتاء شديد البرودة، وجمادى الآخرة من هذه السنة لم يكن في الشتاء بل هو في القيظ، وإنما كان دخول الشتاء بعدها بشهرين حيث كان في رمضان الذي كان فتح مكة في أوله، ومنها أن النصوص تشير أن الغزوة وقعت أثناء ولاية العلاء بن الحضرمي على البحرين، وإرسال الرسول ﷺ العلاء إلى البحرين إنما كان بعد الفتح وكان ذلك منصرفه من الجعرانة كما عند ابن سعد أو منصرفه من =

«حدثنا محمد بن أبي عديٍ، عن داود، عن عامرٍ، قال: بعث رسول الله ﷺ جيشً ذات السلاسل، فاستعمل أبا عبيدة على المهاجرين، واستعمل عمرو بن العاص على الأعراب، فقال لهما: تطاوعا...»[١]

فهذه الأحاديث تؤكد ما ذكره الإمام الشافعي في التفريق بين الغزاة، وتؤكد ما ذكره الماوردي بعد ذلك، وتؤكد أيضًا أن معنى جديدًا ألحق بهذا المصطلح بعد الفتح وسقوط فرض الهجرة عن أهل مكة وهو معنى عسكريٌ قائمٌ على أصل معنى «المهاجرين» و«الأعراب» الذي كان مستعملًا بين فرض الهجرة وسقوطها.

وهذا الاستعمال التقابلي بين لفظتي «الأعراب» و«المهاجرين» الذي أوجده الإسلام، ثم تطور بعد ذلك تبعًا لمراحل الدعوة الإسلامية، بدأ بالاتكاء على معنيين لغويين وانتهى بعيدًا جدًّا، فـ«مهاجر» لا تعني في اللغة أكثر من ترك مكان وهجره والارتحال إلى مكان آخر، ولكنها صارت في لسان الشرع تعني فئة من المسلمين انتقلوا من مكة إلى المدينة، ثم توسعت لتشمل كل من أسلم من غير أهل المدينة ونزلها مع رسول الله ﷺ، ثم عندما سقط وجوب الهجرة وانتفى حكم فضل الهجرة إلى المدينة

= تبوك كما يقول الواقدي، ومنها أنها وقعت قبل وفاة الرسول ﷺ بسنة كما في حديث رافع الطائي، إلى غير ذلك من المرجحات التي ليس هذا موضع بسطها.

(١) **مسند أحمد** ٣: ٢٢٦ حديث (١٦٩٨) وقال شعيب الأرناؤوط: «رجاله ثقات رجال الصحيح، إلا أنه مرسل، عامر ـ وهو ابن شراحيل الشعبي ـ لم يدرك القصة فحكاها مرسلة».

وذلك بعد فتح مكة أصبح وصف المهاجر يحمل مع المعاني السابقة معنى إضافيًّا وهو المقاتل المتفرغ للجهاد في سبيل الله.

أما «الأعراب» فهي تنطلق من معنى لغوي بعيد عن الهجرة، وهو أخلاط الناس من العرب، ولكنها في لسان الشرع صارت تطلق على أفراد من مجموع قبائل قريش وأحلافها الذين أسلموا وبقوا في مكة ولم يهاجروا إلى المدينة بعد فرض الهجرة، ثم شملت بعد ذلك من وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر من غير أهل مكة، ثم لما سقط وجوب الهجرة بعد الفتح صارت تطلق على من نزل المدينة أو كان من أهلها والتحق بالمجاهدين ولم يكن من أهل الفيء والغنيمة.

فمعنى لفظة «الأعراب» يتطور في زمن الرسالة في مقابل لفظة المهاجرين فكلما زاد في الثانية معنى قابله معنى جديد في الأولى.

إلا أنه بعد الفتوحات الإسلامية وانتقال العرب الفاتحين إلى العراق وفارس وتمصير الأمصار كان النازلون في هذه الأمصار هم الفاتحين والمقاتلين المتفرغين للجهاد في سبيل الله الذين رأيناهم يسمون المهاجرين، وكان هؤلاء الفاتحون يقيمون في هذه الأمصار بنسائهم وأبنائهم ويذهبون في البعوث ويعودون، فصار المقيم في هذه الأمصار يسمى مهاجرًا لأنه مقاتل «نظامي» ولذلك كان هؤلاء يسمون أيضًا الجند ومنه اسم الكوفة التي كانت

تسمى كوفة الجند، وفي المقابل صار من لا ينزلون هذه الأمصار من العرب القريبين منها يسمون أعرابًا، والذين ينزلونها ولا يكونون من الجند فهم أعراب أيضًا محتفظين بالمقابلة المستمرة بين المهاجر والأعرابي والتضاد الذي نشأ بعد فرض الهجرة من مكة إلى المدينة، ولذلك استعمل بعض الشعراء لفظة «الأعراب» مضادة للجند التي كانت في هذه المرحلة والتحول الجديد ترادف «المهاجرين»، وهذا المعنى ظاهر في شعر هذه المرحلة وأخبارها ومنه قول عبدة بن الطبيب:

إن التي ضربت بيتًا مهاجرةً
في كوفة الجند غالت ودها غول[١]

ومنه قول عبد الله بن الزبير الأسدي:

ألا طرقت رويمة بعد هدءٍ
تخطى هول أنمارٍ وأسد
تجوس رحالنا حتى أتتنا
طروقًا بين أعرابٍ وجند[٢]

وما لبثت هذه الأمصار حتى غدت مقصدًا للنازلين من العرب وكثر فيها الناس من غير الجند فبدأ التضاد بين «الجند» و«الأعراب» يختفي ليبقى اللفظ القديم وهو «المهاجرون»، ولكنه بدأ يفقد عند العامة معنى مرادفة الجند ليأخذ معنى الإقامة في القرى فقط ويبقى مضادًا

---

(١) **شعر عبدة بن الطبيب** للدكتور يحيى الجبوري ٥٩.

(٢) **شعر عبد الله بن الزبير الأسدي** للدكتور يحيى الجبوري ٧١.

لـ«الأعراب» من هذا الوجه، فصار من يسكن القرية من الأخوين أبناء الرجل الواحد مهاجرًا، وأخوه الذي لم يسكن القرية أعرابيًّا، وهذا ظاهر أيضًا في أشعارهم ومنه قول حريث بن عناب الطائي:

يا شر قومٍ بني حصنٍ مهاجرةً
ومن تعرب منهم شر أعراب[١]

ومثله قول القطامي التغلبي:

فليس من الأحياء إلا مسودٌ
ربيعة أعرابيَّه ومهاجره[٢]

وكل هذه الاستعمالات لا تحمل أي معنى من معاني التفريق بين «الأعراب» و«العرب»، لأنهما في أصل الاستعمال اللغوي بمعنى واحد فالأولى جمع للثانية، فلا تضاد بينهما من أي وجه، وإنما كان التضاد في الإسلام ـ وبعد الهجرة خاصة ـ بين «المهاجرين» و«الأعراب» كما بيناه سابقًا.

إلا أن دخول العجم من أهل تلك البلاد المفتوحة في الإسلام، وانتماء كثير منهم إلى العرب بالولاء سواء من كان أول أمره من سبي الحروب أو من لم يكن، ثم لما استقرت تلك البلاد المفتوحة ومضى جيل الفاتحين ومواليهم، وظهرت ناشئة جديدة من أبناء وأحفاد الموالي الذين أصبحوا يعيشون كما يعيش أبناء الفاتحين لا فرق

(١) **شرح ديوان الحماسة** للمرزوقي، تحقيق غريد الشيخ ١٠٣٦.

(٢) **ديوان القطامي**، تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ٩٦.

بينهم، بل ربما كان الموالي في كثير من الأحيان أفضل معيشة ومكانة من أبناء العرب الفاتحين لاسيما مع ظهور الدولة العباسية التي اعتمدت على الموالي في غالب شأنها، هناك بدأ يظهر من بعض الموالي الانتقاص من العرب والنيل منهم سواء بالقول أو الممارسة، وما لبث الأمر أن دب إلى الكتاب منهم والشعراء، فصاروا يبحثون عما يسمونه مثالب العرب ويجمعونه ويدونونه وربما اختصوا كل قبيلة من العرب بمثالب، وظهر في أشعار بعضهم التنقص من العرب والفخر بتاريخ وأمجاد الفرس، وكان بعضهم ينطلق في هذا من بغض للإسلام، ولكنه لا يستطيع التصريح به، فيكتفي بالنيل من العرب الذين هم مادة الإسلام وحملته، فنجد التنقص من القبائل لا سيما التي تغلب عليها البداوة، فوصفوها بأوصاف النقص، وكان من تلك الأوصاف إطلاق لفظة «الأعراب» على تلك القبائل اعتمادًا على أن هذه اللفظة قرآنية وأن أصل استعمالها الشرعي الذم، فاستعملوها ذمًّا وشتمًا للعرب، ودرج استعمالها بين الأعاجم تنقصًا للقبائل العربية والمنتمين إليها، فتجاوز بذلك المعنى اللغوي الأصلي، وتجاوز المعنى الشرعي الإسلامي بطوريه، واتكأ على التحور الجزئي للمعنى الذي حدث بعد الفتوحات، لكنه انحرف كثيرًا ليدخل في معنى جديد لا ينصرف عند محدثيه إلا إلى الذم، وكان أبناء القبائل العربية يدركون ذلك ويرونه ويعلمون أنه معنى محدث لم تستعمله العرب، وإنما هو من صنع الموالي، ولم تكن العرب تقبل هذه التسمية التي

أشاعها الموالي وأطلقوها على كل عربي ـ بدويًا كان أو حضريًا ـ فقد جاء في شرح البكري لأمالي القالي: «والعربي يأنف أن يقال له يا أعرابي لجفاء العرب وعنجهيتهم، قال الشاعر:

يسموننا الأعراب والعرب اسمنا
وأسماؤهم فينا رقاب المزاود

رقاب المزاود إشارة إلى أنهم موال وهم الحمر»[١].

والصحيح أنه لا علاقة لذلك بعنجهية العرب ولا جفائهم ولكنهم يأنفون منه لأنه تجاوز معانيه التي يعرفونها والتي منها ما هو ذمٌّ مخصوص لفئة مخصوصة في زمن مخصوص، ومنها ما هو معنى لغوي عام استعمله العرب أنفسهم وصفًا لذواتهم جاعلين منه مدحًا وافتخارًا ومن ذلك قول عمرو بن الأهتم ﵁ مفتخرًا بمواقف قومه وشجاعتهم:

واقتضينا ديوننا في عقيلٍ
وشفينا غليلنا من كلاب
نزلوا منزل الضيافة منا
فقرى القوم غلمة الأعراب[٢]

ومنه قول رؤبة بن العجاج مفتخرًا بنسبه الصريح المنتمي إلى صميم الأعراب أي العرب:

---

(١) **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي** لأبي عبيد البكري، ت عبد العزيز الميمني ١: ٥٨٩.

(٢) **شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم** دراسة وتحقيق د. سعود محمد عبد الجابر ٨١.

بـل أيـهـا الـبـاغـي بـقـول الـتـكـذاب
إلـى الأقـاصـي مـن صـمـيـم الـصـيـاب
إنـا إذا مـا عـد خـيـر الأنـسـاب
نـوجـد فـرعًـا مـن صـمـيـم الأعـراب[١]

وحتى لا يتوهم متوهم من كلام أبي عبيد البكري أن الذين كانوا لا يقبلون الوصف بـ«الأعراب» هم أهل القرى أما البوادي فلا يأنفون من ذلك كما صرح بذلك الأزهري في التهذيب وهو الكلام الذي يكرره أهل الشروح والتفاسير نقلًا عن الأزهري، فإن هذا البيت موضع الشاهد الذي استشهد به البكري لشاعر بدوي[٢] وصفه ابن قتيبة فقال: «وقال رجل من الأعراب [طويل]:

يـسـمـونـنـا الأعـراب والـعـرب اسـمـنـا
وأسـمـاؤهـم فـيـنـا رقـاب الـمـزاود

يعني العجم يسمون الحمراء»[٣]

وربما غلب بعض أولئك العجم حنقه وحقده على الإسلام فتجرأ بالتصريح عما يكني عنه آخرون من إخوانه الشعوبيين فوصف الصحابة الكرام بـ«الأعراب» بقصد التنقص والذم، فهذا موسى الأسواري، وهو من رواة الأخبار وممن اشتغل برواية الحديث، وتكلم في فنون

---

(١) **مجموع أشعار العرب** مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج لوليم ابن الورد البروسي ٨.
(٢) **في أدب الخواص** للوزير المغربي ١١٥ أنه الأشهب العكلي.
(٣) **عيون الأخبار** لابن قتيبة الدينوري، العلمية ٤: ١٣.

عديدة تنقل عنه كتب الرجال: «قال موسى بن يسار: إن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أعرابًا جفاة، فجئنا نحن أبناء فارس فلخصنا هذا الدين»[(١)].

وكأني بالأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ قد استحضر كلام موسى هذا وأمثاله عندما صرح وأكد بوجوب التفريق بين الأعراب والعرب وأن الأولى تعني البوادي والثانية تعني أهل القرى ثم إشارته في معجمه إلى أنه لا يجوز وصف الصحابة من المهاجرين والأنصار بالأعراب، مع عدم وجود سبب يستدعي الإشارة إلى الصحابة رضوان الله عليهم في سياق شرحه اللغوي إلا وقوعه تحت ضغط دفع هذه الأقوال الشعوبية، فنفى الأعرابية عن المهاجرين والأنصار خوفًا من توهم دخولهم في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾، ولكن فاته رَحِمَهُ اللَّهُ معناها المذموم في الشرع ومعناها الأصلي عند العرب قبل الهجرة.

وهذا الاستعمال لـ«أعراب» لم يلبث أن شاع في حواضر الإسلام خارج جزيرة العرب، وخاصة في العراق موطن العلوم والكتابة والتأليف حتى صار كثير من عرب تلك الحواضر يستعملونه كما يستعمله غيرهم من العجم وصفًا لعرب الجزيرة عامة وللبوادي منهم خاصة.

ولما بدأ علماء اللغة بجمع المواد اللغوية وجدوا هذا اللفظ شائعًا في عصرهم بالمعنى الأخير الذي لا يعني سوى البوادي، ووجدوا هذه اللفظة ترد في كثير من نصوص

---

(١) **ميزان الاعتدال** للذهبي، ت علي محمد البجاوي ٤: ٢٢٧.

الشرع في سياق الذم، ففسروا النصوص بالمعنى الشائع الذي إذا ربطوا بينه وبين أكثر المعاني في السياقات القرآنية خلصوا إلى أن الأصل في معنى «الأعراب» الذم والنقص، فوافقوا بذلك من حيث لا يريدون توجه الشعوبيين في التنقص من العرب وذمهم؛ لأن الشعوبية لن تعدم بعد ذلك إيجاد نصوص كثيرة تطلق فيها «الأعراب» على عموم العرب سواء البوادي أو أهل القرى بل حتى لن تعجز عن إيجاد نصوص أطلق فيها لفظ «أعراب» على عدد من الصحابة.

لقد استقر معنى «الأعراب» في معاجم اللغة ـ كما رأينا ـ على البادية فقط، وأُخرِج أهل القرى والأمصار العربية منه بالكلية، إلا أن الشعوبية التي بدأت بتخصيصه ببوادي العرب وجعلت استعمالها له مقصورًا على المعاني السلبية لم تكتف بذلك ولم تقف به على البوادي بل جعلته عامًا يشمل جميع سكان جزيرة العرب لتدخل أهل القرى في ذلك، فتعيد «الأعراب» إلى عمومه في أصل الاستعمال اللغوي، ولكنها سلبته معناه الأول وألبسته شعار الذم المستعار من المعنى الشرعي الذي انتهى بفتح مكة، ثم سربلت بهذا الثوب الهجين كل من انتسب إلى قبائل العرب، فكان المدون في الكتب وقصاصات الأوراق شيئًا وما يستعمله الشعوبيون ويشيعونه في حواضر الإسلام خارج الجزيرة وفي أطرافها الشمالية شيئًا آخر.

ولعل الناظر إلى ما آل إليه استعمال لفظة «أعراب» وما يستدعيه من المعاني لدى سامعيه لا يحتاج إلى براهين وأدلة على أنه صار مستودعًا للوصف بالنقائص، فلا تجد من

يرضى لنفسه أن يوصف به على هذا المعنى الشعوبي، فالعرب الذين كانوا يفخرون بأنهم من صميم الأعراب أصبحوا يتبرؤون من هذا الاسم، وصار كثير من علماء اللغة وعلماء الشريعة يستميتون في دفع هذا الوصف عن أفاضل الناس وأخيارهم.

ويبدو لي أن هذا الاسم بمعناه السلبي حورب بين العامة حتى ضعف استعماله ليبقى استعمالًا شرعيًّا ولغويًّا نخبويًّا يستعمله الشراح والمفسرون وأهل اللغة، هذا ما يلحظه المتتبع لدوران المصطلح، ولكن نلحظ أنه زاحمه وحل مكانه في أكثر الأحيان جمع آخر من جموع «عرب» وهو «عربان» فشاع في استعمال العامة والخاصة، داخل جزيرة العرب وخارجها، وهو جمع لم يرهق بالدلالات السلبية التي رأيناها في الأول، وإن كان لم يسلم منها بالكلية.

إضاءات
على نص الأزهري في التهذيب

على ضوء ما ظهر لنا من معنى «الأعراب» في استعمال العرب الفصحاء من الجاهليين والمخضرمين، ومعناها في استعمال كثير من شعراء العربية منذ القرن الرابع إلى اليوم، ثم على ضوء المعنى الشرعي الذي رأيناه في الأحاديث الشريفة والآثار المروية عن الصحابة الكرام ثم أبنائهم وأبناء أبنائهم، وما تجلى لنا من أن هذه المعاني تخالف مخالفة بينة ما تناقلته كتب اللغة التي تصر إصرارًا لا مزيد عليه في التأكيد على اختصاص هذه اللفظة بالبادية، ثم ما رأيناه عند بعض المعجميين من التصريح بالتباين التام بين «الأعراب» و«العرب» وإصرار بعضهم على ذلك والإلحاح عليه كالإمام أبي منصور الأزهري ﵀، ورأينا أن ما قاله اللغويون لا يقوم على شيء من كلام الفصحاء يدل على اختصاص «الأعراب» بأهل البادية أو يدل على التباين التام بينها وبين «عرب» في المعنى.

وعليه فسوف نقف مع أشهر النصوص المعجمية وأوسعها وأكثرها تفصيلًا وتداولًا ونناقشه على ضوء ما ظهر

لنا من معنى هذه اللفظة، ألا وهو نص التهذيب لأبي منصور الأزهري الذي سبق إيراده.

ويجب علينا أن نؤكد على أن هذا النص تداخلت فيه معاني لفظة «أعراب» في جميع مراحلها، فخلط فيه المعنى الشرعي في طوريه بين الهجرة والفتح وما بعد الفتح، بالمعنى الذي شاع بعد تمصير الأمصار ونزول العرب الفاتحين في الكوفة والبصرة، وغاب فيه المعنى اللغوي الحقيقي الذي تعرفه العرب.

قال الأزهري(١): «ورجل أعرابي بالألف إذا كان بدويًّا صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبع لمساقط الغيث، وسواء كان من العرب أو من مواليهم».

تبين لنا أن لفظة «أعرابي» ليست في كلام العرب قبل الإسلام، وأن العرب استعملت «أعراب» ولكنها لم تنسب إليها، كاستعمالها لـ«أنصار» و«مهاجرين» التي لم تنسب إليها أيضًا، ولم تكن النسبة إلى هذه الأسماء إلا في الإسلام وتحديدًا بعد هجرة المصطفى ﷺ.

و«أعراب» لم تكن قبل الهجرة إلا صيغة جمع كـ«أعاريب» و«أعارب»، التي لم تقل العرب فيها «أعاريبي» ولا «أعاربي»، ولم تقل كذلك «أعرابي» إلا بعد أن حدث المعنى الجديد لـ«أعراب» الذي ليس هو معنى «أعراب» الأولى، كما أن معنى «أنصار» و«مهاجرين» الجديد ليس معناهما الأول.

---

(١) **تهذيب اللغة** ت محمد عوض مرعب مادة (عرب) ٢١٨:٢.

أما تخصيص «الأعرابي» بالبدوي فقد نقلنا من النصوص الفصيحة الصريحة ما ينقض هذا ويبطله، إذ وجدنا لفظة «أعرابي» تطلق في كلام الفصحاء على أعداد من الصحابة الكرام من قريش البطاح بل من بني عبد مناف فضلًا عن غيرهم من أهل القرى العربية.

أما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسواء كان من العرب أو مواليهم»، فينقضه افتخار خلص الأنساب من العرب بانتسابهم إلى «صميم الأعراب»[(١)]، ولا يظن بعربي أن يفتخر بنسب يشارك الموالي فيه، والانتساب إلى «الأعراب» عند بعض المعجميين هو الانتساب إلى الصرحاء من العرب، وهذا ما يؤكده ابن سيده في قوله: «والأعراب صرحاء العرب وبداتهم»[(٢)].

والحق أن عدم تحرير المعنى الدقيق لـ«أعراب» أوجد الخلط بين دلالاتها المتعددة اللغوي القديم والشرعي الحادث وما بني عليهما بعد ذلك، ومنها هذا القول من أبي منصور.

إن «الأعراب» التي تعني في لغة العرب قبائل العرب والتي صارت عند المعجميين «سكان البادية خاصة»، لا يمكن أن تطلق على غير صرحاء النسب من العرب، أما «الأعراب» التي مفردها «أعرابي» فهي شيء آخر حدث بعد

(١) كبيت رؤبة بن العجاج الذي سبق إيراده.

(٢) **المخصص** لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١: ٢١٠.

الهجرة وتطورت دلالته، ومن أطواره الدلالية ما أشرنا إليه من أنها كانت تطلق بعد الفتح على غير أهل الفيء من الغزاة والمقاتلين، وبعد فتوحات العراق وفارس والشام دخل تحت هذه الفئة من المقاتلين أعداد من الموالي، فصارت تشمل بهذا المعنى العسكري الإسلامي المحدود فئات من العرب والأعاجم، وقد نص على هذا الماوردي فيما سبق نقله عنه بقوله: «فأما الأعراب فالمراد بهم من لم يثبت في ديوان الجيش، ولا التزم ملازمة الجهاد ولكن يغزو إذا أراد ويقعد إذا شاء، فهؤلاء هم المسمون أعرابًا سواء كانوا عربًا أو عجمًا»[١].

أما الأعراب التي هي قبائل العرب بالمعنى اللغوي فهي شيء آخر لا يقصد به إلا صرحاء العرب.

أما قوله رحمه الله: «والأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح بذاك وهش له، والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب له».

فالأعرابي الذي يفرح بأن يقال له يا عربي هم الموالي الذين سموا أعرابًا بالمعنى العسكري الذي ذكره الماوردي، أما القبائل العربية ـ القروي منها والبدوي ـ فهم العرب الخلص وهم الأعراب بالمعنى اللغوي الذي تعرفه العرب قبل الإسلام وبعده، وليس المعنى الشرعي الحادث بعد الهجرة وما تبعه من معانٍ بعد الفتوحات الإسلامية، وأبناء هذه القبائل هم أيضًا الذين كانوا يغضبون من المعاني

(١) **الحاوي الكبير** للماوردي ٨:٤٤٧.

العنصرية التي ألحقها الشعوبيون بمعنى «الأعراب» فصاروا يغضبون من الوصف بالأعرابية لما وراءها من المقاصد التي يرمي إليها الشعوبيون كما سبق أن بيناه.

ثم قال رحمه الله: «قلت: والذي لا يفرق بين العرب والأعراب والعربي والأعرابي ربما تحامل على العرب بما يتأوله في هذه الآية، وهو لا يميز بين العرب والأعراب».

يشير رحمه الله في قوله: «هذه الآية» إلى قول الله جل وعلا: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾، والأزهري ـ كما سبق أن أشرنا ـ واقع تحت هاجس دفع الوصف بالأعرابية عن الصحابة رضوان الله عليهم، مما جعله يصر على التفريق والمباينة التامة بين معنى «العرب» و«الأعراب» لتكون «العرب» خاصة بأهل القرى التي تعني عنده مكة والمدينة وسكانها من الصحابة الكرام مستدلًا بتفسيره للآيات على هذا التفريق مع أنه ليس في الآيات الكريمة ما يشير من بعيد ولا قريب إلى التفريق بين اللفظتين.

ثم يقول بعد ذلك مباشرة: «ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار: أعراب، إنما هم عرب؛ لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن، سواء منهم الناشئ بالبدو ثم استوطن القرى والناشئ بمكة ثم هاجر إلى المدينة».

فعلى ضوء هذا التفريق المفترض بنى الأزهري الحكم بعدم جواز إطلاق لفظة «أعراب» على المهاجرين والأنصار، والعلة عنده رحمه الله أنهم سكنوا القرى، وهذه العلة

لا تصح سببًا لهذا المنع، فقد رأينا كثيرًا من الصحابة الكرام من أهل مكة يسمون أعرابًا، فليست سكنى القرى مانعًا من الوصف بالأعرابية كما تبين لنا، وإنما المانع من وصف المهاجرين والأنصار بالأعرابية هو أن الأعرابية مضادة للهجرة، فكل من أسلم من أهل مكة ووجبت عليه الهجرة ولم يهاجر فهو أعرابي، أما الأنصار فإنهم مقيمون في دار الهجرة أصلًا.

فـ«الأعراب» بهذا المعنى تضاد «المهاجرين» ولا تضاد «العرب»، وكل عربي بدويًّا كان أو قرويًّا وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر فهو «أعرابي» مذموم، أما من أسلم بعد الفتح فهو «أعرابي» وإن نزل المدينة للتفريق بينه وبين المهاجر، وليس له فضل المهاجر، ولا ذم عليه لأن الهجرة لم تجب عليه قبل إسلامه.

خاتمة

بعد هذه الرحلة اللغوية التاريخية الشرعية مع لفظة «أعراب» تبين لنا بالبراهين الناصعة والأدلة الواضحة من كلام رسول الهدى الأمين ومن كلام الصحابة الطيبين الطاهرين ومن كلام فصحاء العرب الأولين أن هذه اللفظة لم تكن في لغتهم ولا في أصل استعمالهم تعني البدو ولا البداوة، وأنَّ حَمل ما جاء منها في النصوص على البادية بإطلاق خطأ لغوي وشرعي تجب معالجته، فهذا الترادف المطلق بين «الأعراب» و«البادية» ترادف موهوم توهمه بعض اللغويين وتقاطرت عليه الكتب بعدهم.

وتبين لنا أن هذه اللفظة ليس لها في لغة العرب معنى يعدو معنى الجمع فـ«أعراب»جمع «عرب» لا غير، شأنها في ذلك شأن باقي الجموع التي عرفتها اللغة.

وتبين لنا كذلك أن هناك معنى شرعيًّا طرأ على هذه اللفظة مصاحبًا لهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وأن هذا المعنى برز وشاع مع شيوع المعنى الشرعي الناشئ الذي لحق بلفظتي «مهاجرين» و«أنصار»، ثم رأينا أن تطورات دلالية تعاقبت على هذه اللفظة بعد فتح مكة وسقوط فرض الهجرة، وما تلا ذلك من الفتوحات في عهد

الراشدين، ثم ما استجد من تمصير الأمصار ونزول العرب الفاتحين في العراق والشام.

فكل شارح لا يستصحب عند شرحه لهذه اللفظة السياق الزمني واللغوي سيكون عرضة للزلل، وربما حمل على النصوص معنى لم يرده القائل ولم يشر إليه.

إنني لأرجو الله أن يكون هذا البحث سببًا لإعادة هذه اللفظة إلى معناها الحقيقي في لغة من تكلم بها وأن يبطل الله به كثيرًا من التصورات والأحكام التي بنيت على المعنى اللغوي المغلوط، وأن تكون هذه الدراسة قاعدة صلبة وبابًا واسعًا لقراءات جديدة واعية لكثير من النصوص التي جاءت فيها هذه اللفظة وعولجت من منظور الترادف بين لفظتي «الأعراب» و«البادية».

فلنعد «الأعراب» إلى أصلها الأول في لغة فصحاء العرب وفي اصطلاح الشرع، ولنمت معناها اللغوي الهجين بهجره أولًا، ثم بديمومة استحضار المعنى الصحيح الذي أراده القائل الفصيح.

وأنبه أخيرًا إلى أنني لم أقصد في هذا البحث إلى استقصاء وشرح جميع النصوص الفصيحة التي وردت فيها لفظة «أعراب»، وإنما عمدت منها خاصة إلى النصوص التي لا يمكن حمل معنى «الأعراب» فيها على سكان البادية وهي كذلك النصوص التي من خلال فهم معناها نستطيع فهم وتفسير النصوص الأخرى التي ترد فيها هذه اللفظة.

ومن تلك النصوص التي لم أتعرض لمعنى «الأعراب»

فيها ـ رغم أهميتها ـ الآيات الكريمة التي جاءت فيها هذه اللفظة، وقد تركت التعرض لها للسبب المشار إليه آنفًا ولسببين آخرين هما:

أولًا: أن المعنى اللغوي الذي يذكره المفسرون المتأخرون عند تفسير هذه الآيات من أن «الأعراب» سكان البادية خاصة معنى لا يستند إلى غير النقل عن معاجم اللغة ونحن قد بيَّنَّا في بحثنا اضطراب ما جاء في المعاجم وأن تخصيص الأعراب بسكان البادية معنى نشأ في مرحلة متأخرة بعد الفتوحات ولم يكن هذا التخصيص معروفًا في الجاهلية ولا في عصر الرسالة ونزول القرآن.

ثانيًا: أن ما جاء عند أئمة التفسير الأوائل من الصحابة والتابعين لا يتعدى أن المقصود بـ«الأعراب» في عموم الآيات التي وردت فيها إما القبيلة الفلانية وإما القوم الفلانيون وإما أنها نزلت في بني فلان، وجميع ذلك لا يتعارض مع ما ذكرناه، فيمكن حمل ذلك كله على المعاني المعروفة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من غير تكلف، فلا مانع حينئذ أن يكون الأعراب المعنيون في الآيات قومًا من سكان البادية على المعنى الذي بيَّنَّاه، ويكون وصفهم بالأعراب متعلقًا بالمعنى الشرعي المقابل للهجرة، أو بالمعنى اللغوي الذي يعني لفيف القبائل العربية، فلا يكون حينذاك لسكنى البادية علاقة بأعرابيتهم لا من بعيد ولا من قريب.

وعليه فإن الذي سيفسر معنى «الأعراب» في الآيات

يجب عليه الرجوع إلى سياق كل آية ثم النظر في كلام أئمة التفسير الأوائل ليتضح معناها في كل سياق وما يمكن حملها عليه من المعاني المعروفة في عصر نزول القرآن، وهذا التقصي ليس من مقاصدي في هذا الكتاب؛ لأنه ـ رغم أهميته ـ بحث أخر مستقل يأتي في سياق البحوث التي يمكن أن تقوم على نتائج هذا البحث.